يوميات مدير مدرسة

قصص قصيرة

علي عبد الفتاح

الكتاب: يوميات مدير مدرسة .. قصص قصيرة

الكاتب: علي عبد الفتاح

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عبد الفتاح ، علي

يوميات مدير مدرسة / علي عبد الفتاح

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٨٤٢ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦٣٧٣ / ٢٠١٩

يوميات مدير مدرسة

قصص قصيرة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

{الرحمن* عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خلق الإنسان * علمه البيان}

(الرحمن: ١ – ٤)

إهداء

إلى السيد رئيس جمهورية مصر العربية
وإلى السيد وزير التربية والتعليم
والمؤسسات التعليمية
ومدراء المدارس
وكل من تعنيه قضايا التعليم في مصر
أهدي كتابي هذا.

المؤلف

مدخل

هذه اليوميات واقعية،

لم أضف إليها إلا ما تقتضيه الدراما الفنية.

وكل القضايا التي عرضتها،

ما زالت في حاجة إلى إصلاح وحلول جذرية.

المؤلف

أقوال عاشت

- مهمة المعلم أن يزرع الصحراء، ويقتلع الحشائش الضارة من الحقول. (فيكتور هوجو)
- التعاطف مع الطلاب هو سر نجاح المعلم. (ابن خلدون)
- معلم بدون ثقافة جادة إفساد للمتعلمين. (العقاد)
- نحن نتعلم لنغير أفكارنا وسلوكنا، وليس لشغل وظائف. (أنيس منصور)
- يجب أن تكون المدرسة حصنًا لحماية الطلاب من فساد الواقع. (علي مبارك)
- المدرسة هي مصنع إعداد القادة والمبدعين والعلماء. (أحمد زويل)
- من لا يتفوق على معلمه يكن تلميذًا تافهًا. (ليوناردو دافنشي)
- السر في التعليم احترام التلميذ. (أوسكار وايلد)
- التربية العاطفية بداية ليقظة الفكر والوعي. (جوستاف فلوبير)
- كرامة المعلم قبل كل شيء. (مصطفى محمود)
- المعلم فنان مسكون بشهوة المعرفة. (شيللي)
- التعلم أن ترقى بالفكر والشعور وتغير العالم. (شكسبير)
- التعليم كالماء والهواء حق لكل إنسان. (طه حسين)
- كلما تعلم فردًا تحرر آلافًا من عبيد الجهل. (توفيق الحكيم)
- ليس المهم أن نتعلم، ولكن أن نعيش حياة العلم. (روسو)
- كُتب على المعلم تجربة العناء ليكون المثل الأعلى. (أرسطو)
- أجمل أيام حياتي عندما كنت تلميذًا. (بير كوري)

- جميع أساتذتي بالمدرسة اتهموني بالغباء. (توماس إديسون)
- علم دون إيمان يخلق متعلم بلا هوية. (الإمام الشافعي)
- الحب والجمال والحرية قيم المدرسة المثالية. (أفلاطون)
- تعلمت عشق الرسم من أستاذي بالمدرسة. (بيكاسو)
- حفظي للقرآن الكريم جعلني متميزًا بالمدرسة. (أحمد أمين)
- المدارس لا تعلم، ولكن ترشدك إلى العلم. (دستويفسكي)
- المعلم يعطي من حكمته وإيمانه ومحبته. (جبران خليل جبران)
- المعلم يتسع عقله بالمعرفة، ويفيض قلبه بالحب والإيمان.

(ميخائيل نعيمة)

- تبدأ الحياة الحقيقية داخل الفصل مع أول درس، وأول كلمة من فم المعلم.

(علي مبارك)

- ليس صدفة أن اكتشف القرد موضع الموز، إنها الخبرة العلمية.

(ثورانديك)

- بناء مدرسة جديدة يهدم ألف سجن من سجون الجهل.

(رفاعة الطهطاوي)

- لا تكتمل شخصية المرأة إلا بالعلم والثقافة. (سميرة موسى)
- علموا أولادكم في المدارس فن البحث عن المعرفة. (جمال حمدان)
- ادرسوا جوهر الحضارات، وليس مظاهرها وقشورها. (ابن سينا)
- لن نتقدم إلا إذا تحولت مدارسنا إلى ورش عمل وتجارب علمية.

(محمد عبده)

- التدريس ليس تلقين للمعلومات، ولكن توجيه وبحث واكتشاف.

(ابن رشد)

- مقياس تقدم المدارس بمدى اهتمامها بالفنون والإبداع والابتكار.

(محمود مختار)

- المسرح المدرسي بداية التنوير العلمي والثقافي للطلاب. (يوسف وهبي)
- مدرسو الموسيقى والفنون والتربية البدنية والدينية هم رواد التقدم.

(بيتهوفن)

- لابد أن يكون داخل كل فصل مكتبة ثقافية يكونها الطلاب.

(نجيب محفوظ)

- يجب أن تتعلم الفتيات كيف يكتسبن العلم؛ لأنه قوة تهزم التخلف.

(قاسم أمين)

- اعرف نفسك من خلال طرح تساؤلك على معلمك لتلمس الحقيقة.

(أرسطو)

- المدرسة تقاوم فساد المجتمع، وتعيد إصلاحه من جديد.

(مصطفى مشرفة)

- الخوف والرهبة والعنف يخلقون متعلمًا متطرفًا دون فكر صائب.

(غاندي)

- علموا أولادكم في المدارس كيف يزرعون حديقة في المدرسة.

(حسين بيكار)

- معلم بدون ثقافة عميقة غير قادر على تغيير العقول. (يوسف إدريس)
- التعلم يعني بناء شخصية الفرد، وإعداد قادة المستقبل. (أحمد زويل)

مقدمة

أن تتعلم، أن تتأثر، أن تدرك، أن تفهم حتى يصبح لديك في الحياة مهمة وقضية ورسالة وطنية، هذا هو الهدف الكبير من التعلم؛ ولذلك تعلمتُ أسرار الحياة وفن الإبداع، وعشق الثقافة في مدارس الحُب والجمال والحرية.

عشتُ في عالمِ الأدب وعشقتُ صفحات الكتب، وكم من ليالٍ غفوت على صفحاتِ كتابٍ وقلبي في نهرِ الأحلام يتدفق وينساب، وشاهدتني أركض في حدائق خضراء، وأُغنى للقمر والنجوم، وأعانق السماء.

رأيتنى أحتضن نهر النيل، وأحفر آثاري فوق جبال المستحيل، أبكي عشقًا فوق الضفاف، تدثرني أوراق الشجر وأغصان الصفصاف، تصادقني فراشات حائرة، تطاردني سنابل ثائرة، وينتظرني الثوار في جزر الوعد والميعاد، والوطن في زهو المجد قد عاد.

لنجلس سويعات في ظلالِ الشجر، نحاور أزهار الحنين على شفاه القمر، وننام تحت أفق السماء، في موعد مع القدر.

درستُ في جامعاتِ الإنسانية، وجلست في فصول الحرية، وحطمت أصفادي ونزعت قيودي، وأعلنت الرفض لقهر وجودي، وتعلمت كيف تتشكل الطفولة البيضاء، وتلمس روحي آفاق السماء.

تعلمت من كتب التاريخ فنون التحدي والنضال، وتعلمت من كتب الفن كيف أغازل الزهر، وأرسم الشروق في عيون الأطفال.

تفوقتُ في علم الذوق، وأبحرتُ في كتب الأحاسيس والمشاعر المرهفة، درستُ في كلية الحب والحنين، وسموت حتى أعبر عن مشاعري كما الغزلان في الصحراء، ونباتات القمح في الحقول الخضراء.

درست علم الاحترام، والأدب الجميل، والآداب الرائعة، وأدركت كيف أتحدى الخَلق بمعالي الخُلق. تَعلمتُ كيف أشعر بوجع الورد إذا حان اغتيال أوراقه، وعرفت معنى عشق الوطن وتقديس أشواقه.

وفي علم الرقة الإنسانية، وفصول الدقة التعبيرية، وفنون الكتابة الأدبية أبدعت في نسج الكلمات والحروف إلى شموع ومصابيح، ودروب من نور، وفي كتب التعاطف الإنساني درست كيف للقلب أن يبكي لدموع الأطفال، وكيف للروح أن تصرخ في رفض القهر والجشع، وإبادة الأبرياء.

تأثرت بلغة الحوار في أبواب البلاغة والبيان، وروعة الإعجاز الساحر في آيات القرآن، وشاهدتني أتحول إلى وردة وأغنية، وقصيدة حب دون انتهاء.

وكتبت يومياتي بدم العذاب، وقهر الصعاب، وتحدي رياح شريرة، وأوهام تحاول اقتلاع طموحي وأحلامي، ولكني استسلمت لمجد الثقافة، وفكر الحرية، والنضال من أجل فرحة عصفور يتحرر من سجنه.

وهَأنا أنقش يومياتي وأتحدى عصف المواقف والغيوم، وأنتظر على أرض الحضارة، ثورة العلوم، وأغني لنضال الإنسان، وتحدي الهوية واحتفالات البراءة في مدارس الحب والجمال والحرية.

علي عبد الفتاح

(١)

بعد رحلة أربعين عامًا في مجال التعليم، مازلت أحلم أن أعرف من أنا وماذا حققت؟ وكيف تغيرت المفاهيم والقيم؟ أريد أن أعرف، هل ساهمت في زرع وردة في فناء المدرسة؟

ولكن هل الوردة تسأل عن ذاتها؟ وهل السحابة تبحث عن مرايا؟ وهل الكتاب يناقش قراءه في صفحاته؟ فمن أكون في هذي الجموع التي تدفعها البيوت كل صباح إلى أرض الكون، إلى مدارس الحب والجمال والحرية؟.

(٢)

يسألني الطفل الصغير عن ضوء القمر الشاحب، عن سر بكاء البسمة، وسر بهجة الحزن وارتعاش السنابل في هجمات الريح، لا أدري ماذا أقول! لعل النبت الطالع الصغير يصرخ بالرحمة، لعل النهر ينفجر في تعاطف مع القلب، وحين يسألني الطفل عن سر الفراق والرحيل، تنهمر قطرة حنان تتدفق بالمطر من شرايين روحي.

(٣)

كثيرًا ما لمحت دمعة في عيون أطفال المدارس فتهتف روحي: من يشاطرني الأحزان وألوانها؟ من يرسم الدموع في أجفانها؟ من يلملم البحار وشطآنها؟ من يا ولدي يكشف تاريخ جراحي وزمانها؟ من يكتبني حرفًا؟ من يرسمني عشبة تبحث عن أوطانها؟ من أيها السادة في هذا الكون يواجه أمواج روحي في حنانها؟

(٤)

عندما مات تلميذ من ضربات المعلم على رأسه، سقطت أوراق الشجر في فناء المدرسة، ووقف التلاميذ في طابور الصباح يقرئون الفاتحة على روح زميلهم الراحل، وأقام المعلمون صلاة الغائب، فماذا أقول؟

أيها الواقفون في مآتم الشهيد، كفوا عن النشيج، واطرحوا جانبًا صفحات الدموع؛ فالوطن يشرب قهوته السوداء، ويتلو آيات من سورة الرحمن؛ فقد سقط الإنسان، وغفا المجد في أقبية الجليد.

(٥)

جاء تلميذي الصغير شاكيًا، فقال:

- كتاب اللغة العربية يثير الملل، ولا أفهم منه شيئًا.

وفكرت كثيرًا.. أدركت أنه أشبه بصفحات للوفيات، وعلينا حقًا أن نمزق أوراقه ونعيد تشكيل بيانه من جديد.

(٦)

وقفت المعلمة أمامي تدافع عما قيل من شدة قسوتها وكيف ينفر منها التلاميذ، وحين اقتحم طفلها الغرفة يسألها حاجة، انفجرت كالبركان وانهالت عليه ضربًا؛ لأنه لم ينتظر خارج غرفة المدير كما قالت له.

وأدركت الحقيقة وقلت لها:

- لا مكان لدينا لمعلم يشهر سيف الرهبة والرعب في نفوس الأطفال.

(٧)

صرختُ في وجوه التلاميذ، هددت وأنذرت بالعقاب الشديد، وضربت بيدي على طاولتي بشدة، فوقف التلاميذ أمامي يحاصرهم الخوف والبكاء، وأحكمت سيطرتي على عبثهم وتجاوزهم، وفي ليلة ما سقطتُ من فرطِ الإجهاد والإعياء، وعندما فتحت عيني في الصباح شاهدت وجوه الأطفال باسمة حولي يقبلون جبيني، وبعد رحيلهم خجلت من نفسي، ورحت في بكاء شديد.

(٨)

همس أحد المعلمين في أُذني وقال:

- تسامحك مع شغب التلاميذ يحمسهم للتمادي، وعليك يا أستاذ بالشدة قليلًا أو الحزم. فأدركت كيف أن فرط الحنان يفسد هذا الجيل كثيرًا.

(٩)

وقف أمامي ضاحكًا وقال:

- الكل هنا يكرهني، لا أحد بالمدرسة يقبلني هنا، حتى أنت أيها المدير لا تريدني، لماذا؟

وأعجبت بصراحته، وأنا أعلم أنه تلميذ مشاغب جدًا ويسبب كثيرًا من المشاكل أثناء شرح المعلم. وسألته عن السبب لما يشعر بذلك فقال:

– لا أعرف، أنا لا أشعر بالراحة هنا، عندى رغبة أن أكسر كل شيء، ولا أستمع للمعلم، ولا أريد أن أتعلم، لا أعرف السبب.

وسألته إن كانت أسرته تعرف ذلك، فقال ضاحكًا:

– أنا أعيش في مؤسسة لرعاية الأيتام لا أعرف لي أمًا ولا أبًا!

(١٠)

جاء تلميذى باكيًا وقال:

– سيخسر فريقنا المباراة إن لم ألعب معهم، ومدرس التربية الإسلامية يعاقبني بعدم اللعب؛ لأني لم أحفظ النص القرآني كما طلب منا.

وسألته عن سبب ذلك فأكد انشغاله بالتدريب ليفوز الفريق، وابتسمت ومسحت دموعه وأكدت له أنه سيكون بطل الفريق، ولا بد أن يفوز وينتصر حتى يعود ويحفظ مرة أخرى.

(١١)

وقفت التلميذة الصغيرة أمامي تعاتبني قائلة:

- أنت وعدتنا أن تكون الرحلة للأهرامات الأحد القادم، واليوم جاءت أستاذة العلوم لتخبرنا بموعد الامتحان في هذا اليوم.

وسألتها:

- الرحلة أهم أم الامتحان؟

قالت بجدية:

- الرحلة طبعًا! فيها أهرامات مصر فيها التاريخ واللعب و...

قلت لها مبتسمًا:

- فعلًا تاريخ مصر أهم من امتحان العلوم، وسنقوم بالرحلة.

وانصرفت راكضة وهي تصرخ من الفرحة: الرحلة يوم الأحد، الأحد!

(١٢)

جلس المعلم أمامي يستعيد ذكرياته الحزينة فقال:

جلستُ خجولًا منكسرًا في زاوية من الغرفة، والمعلم يساوم أمي على درس خاص لي، جلس في كبرياء ونظر لي باحتقار وقال لها:

- ابنك غبي في الدراسة، اذهبي به يعمل نجارًا أو حلاقًا في إحدى الورش، ولا تبددي فلوسك بلا جدوى.

وأمي تتوسل لهذا المعلم أن يخصص لي وقتًا ليعلمني ويساعدني حتى أتفوق وأنجح، ثم نظر لي ساخطًا، وقال لها محذرًا:

- أنا لا أعرف الرحمة أو الشفقة في دروسي.

قالت أمي وهي تبكي:

- لك الحق أن تفعل به ما تشاء لينجح.

وقال المعلم لأمي الباكية:

- سأقبل هذا القدر الضئيل من المال منك؛ لظروفك الصعبة.

وكان الدرس الأول، كنتُ منسحقًا بين يديه، أتلقى الضربات على وجهي ورأسي، واللكمات على صدري وكتفي، ثم يقول المعلم ساخرًا:

- ألا يكفي أن أمك لا تدفع المال الذي أستحقه؟ أنت غبي لن تفلح!

ولم أكن قد فهمت شيئًا إطلاقًا، وأنا أعاني من الذل والإهانة والضرب والشتائم. وحين تسألني أمي أقول لها كاذبًا حتى لا تحزن:

- المعلم طيب القلب ويعاملني كابنه.

وأختبئ في الغرفة وحدي أبكي، ولا أدري لماذا كان يوجه لي اللكمات والصفعات حين يعلمن؟!

(١٣)

وقفت أمامي طالبة الثانوي غاضبة؛ فقد وجهت إليها معلمة الفصل كلمات حادة بسبب هذا البنطلون الممزق الذي جاءت به الطالبة إلى المدرسة، وقالت الطالبة:

- إنها أحدث ما وصل إلينا من أمريكا من موضة جديدة.

وتذكرت مقولة ابن خلدون: "المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب".

(١٤)

جاءت تلميذة الابتدائي متذمرة وقالت:

– وليه أحفظ جدول الضرب وأنا عندي على الموبايل آلة حاسبة؟ أنتم بتقولوا دايمًا استعملوا التكو.. التكو..

فقلت لها باسما: التكنولوجيا.

فقالت: هي فين دي؟!

(١٥)

تصادف وجودي داخل أحد الفصول في حصة اللغة العربية، وسألت الطلاب:

– ماذا تقرئون هذه الأيام من المكتبة المدرسية؟

ابتسموا جميعًا، وساد صمت عميق دون رد، والتفت إلى معلم اللغة العربية وهمست له:

– القراءة يا أستاذ، القراءة والثقافة أهم من المنهج!

(١٦)

كنت أتفقد فصول المدرسة، وإذ بي أسمع صوتًا جميلًا لتلميذة تتلو بعض آيات من القرآن الكريم، وسألتها:

- من علمك تلاوة القرآن؟

- معلمتي بالمدرسة، وماما تساعدني قليلًا.

وشعرت بفرحة كبيرة أن القرآن يتردد على شفاه الصغار ويشرح صدورهن ويضيء عقولهن.

(١٧)

اختلفت في نقاشي مع أم تلميذة في المدرسة، الأم تعترض أن إمتحان التعبير في اللغة العربية لم يتدرب علية التلاميذ ولم يحفظوه، وأنا أؤكد للسيدة أن قطعة التعبير تفكير وإبداع للتلميذ ليعبر بحرية، ولا يجوز أن يحفظها التلميذ من قبل.

وقالت الأم: اعتدنا أن يحفظ الطالب كل شيء.

وقلت لها: هذا نظام عتيق يصادر التفكير النقدي وحرية التعبير، ويخلق جيلًا من الآلات أو الببغاوات.

(١٨)

شاهدت التلميذات يزرعن الورود في حديقة المدرسة، حلقت روحي في السماء، فمن يزرع وردة في أرض الوطن يعرف كيف يعشق النيل والشجر وسنابل القمح والنخيل العالي، ويحلم أن يلمس قمم المحال ويقدم للإنسانية جليل الأعمال وعظيم الإنجازات.

(١٩)

وقفت أسلم شهادات التقدير والميداليات التذكارية للتلاميذ الفائقين، ومجموعات كثيرة من الآباء والأمهات يجلسن في انتظار ابنهم أو ابنتهم ليعانقوهم في حب، مع الوقوف أمام المصور لتسجيل هذا الحدث المبهج. وجاءت تلميذة وحدها حين جاء دورها لتصافحني وتستلم شهادة التقدير، وسألتها:

– أين بابا وأين ماما لالتقاط الصور؟

نظرت الفتاة حائرة وهمست لي:

- أنا أعيش مع جدتي المريضة، أما ماما وبابا الله يرحمهما.

وتقدمت منها وجمعت بعض المدرسين وقلت لها:

- نحن أهلك ودعينا نقف بجانبك من أجل الصورة.

(٢٠)

فرحتُ بالندوة الثقافية بالمدرسة تحت عنوان "مدارس بلا عنف"، استقبلت الضيوف ومنهم مدير المنطقة التعليمية ونظار المدارس الأخرى ومدرائها ومندوبًا عن وزير التربية، وتجمعت القنوات الفضائية وبعض محرري الصحف. وأيقنت أن الندوة نجحت حين أثنى الجميع على أهميتها ومدى تفاعل المعلمين والطلاب.

غير أن حدثًا أطاح بكل ما كنت أخطط له وأحلم به، حين اشتد الصراخ خارج قاعة المسرح وجاء من يهمس في أذني:

– أحد الطلاب حاول الدخول عنوة فقام المعلمين بطرحه أرضًا، وسببوا للطالب جراحًا بليغة قد تؤدي لتدخل الشرطة والإسعاف.

وأيقنت أن كارثة قادمة لا محال.

(٢١)

كنت أفحص طلبات التوظيف الجديدة مع قسم شئون العاملين بالمدرسة، فقرأت اسما تهيأ لي أني أعرفه، وبدأت أتذكره. كان ذلك في السنوات الأولى من عملي بالوزارة، وكان هو مديرًا للمدرسة التي نُقلت إليها.

في الحقيقة عانيت منه ظلمًا وتحديًا لا مبرر له، حتى أحالني إلى التحقيق؛ لأني كلفت الطالبات إعداد بحث عن حياة الشاعر (نزار قباني)، وكانت تهمتي التحريض على إفساد عقول البنات بالشعر الماجن.

وعندما التقيت به لم يعرفنى على الفور فقد مسح الزمن ذكريات كثيرة، وحين رجعت به إلى حكاية نزار قباني ابتسم وقال:

- إنه من أهم شعراء الحب والنضال، سامحني لم أكن مثقفًا بما فيه الكفاية.

(٢٢)

فوجئت بمجموعات من الطلبة والطالبات بالمرحلة الثانوية يقدمون اقتراحًا بإقامة حفل (بيجاما بارتي). وضحكت كثيرًا وأنا أستمع إلى آرائهم كأنهم ينظمون مسيرة عمل خيري. قال أحد الطلاب:

– الفكرة رائعة نأتي بالبيجاما ونمرح.

قالت طالبة أخرى:جميع المدارس في أوروبا تحرص على هذا الحفل.

وطالب آخر قال: سنأتي بشيء مختلف يثير صدمة تدهش المجتمع.

وطالبة أخرى تقول: صديقاتي في كندا وأستراليا يمارسن هذا الحفل كل عام.

نظرت إليهم في رثاء، وأدركت أنهم ضحايا الغزو الفكري، واقترحت عليهم أفكارًا جديدة وقلت:

– مصر تعاني، هناك أطفال يتامى، هناك أسر شهداء، يحتاجون إلى مساعدتنا، فلنجعل هذا اليوم يوم التبرع الخيري للفقراء.

(٢٣)

وافقت على طلب أجازة للمعلمة؛ لتتقدم لامتحانات الدراسات العليا، فإذا بها تعود حزينة، فقد قرر مدير الحسابات خصم الإجازة من راتبها. وتحدثت مع المدير وقلت له:

- نحن دولة تشجع العلم، وتحث المثقفين والمعلمين على الدراسات العليا، فكيف ذلك وأنت تخصم من راتبها الضئيل؟!

(٢٤)

في وقت صلاة الظهر سمعت صوت التلاميذ يهتفون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأسرعت إلى المسجد فدهشت للضوضاء والصياح وسألتهم:

- لماذا هذا الصراخ؟

قال أحد التلاميذ الصغار:

- إننا نتلو الشهادة، وهل هذا حرام؟

- ولكن أنتم أنهيتم الصلاة، فلماذا تتحول إلى مظاهرة وبأصوات عالية؟

قال تلميذ آخر:

- نحن ندعو زملاءنا للصلاة؛ فهناك بعضهم يتكاسل.

قلتُ لهم في حزم:

- الله يحاسب كل فرد وليس أنت أو غيرك، وربما لديهم العذر والله غفور رحيم.

وأدركت أني في مأزق مع التلاميذ، فنظرت إلى معلم التربية الإسلامية لينهِ الأمر دون مشاكل، فإذا به يقول متحمسًا:

- وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، علينا أن نُرغم الجميع على الصلاة بالقوة.

وصدمني المعلم بكلماته الخطابية وقلت للتلاميذ:

- كلنا ندعو بعضنا إلى الصلاة بالحسنى والقول الجميل وليس بالقوة، وعلينا احترام مواقف الآخرين.

(٢٥)

اندفع الشيخ محمود داخل غرفتي كالمصعوق، وقال محذرًا:

- مصيبة كبيرة يا سيادة المدير، مصيبة بالمدرسة!

نهضت واقفًا في ذعر وسألته:

- هل سقط تلميذ على الدرج؟

- لا بل ما هو أفظع!

- هل ضرب معلم أحد التلاميذ وأغشي عليه؟

قال الشيخ محمود في قلق:

- يا سيادة المدير، المدرسة سوف تحتفل بعيد الأم غدًا!

وسألته في خوف ودهشة:

- وماذا سيكون؟ أين المصيبة إذن يا شيخ محمود؟

- المصيبة هو الاحتفال بعيد الأم؛ لأنه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في الجحيم إن شاء الله.

وجلست مسترخيًا على مقعدي وقلت له:

- يا شيخ محمود إنه عيد الأم، يوم تكريم الأم، يوم نعبر فيه عن حبنا للأم، فهل هذا ضد الدين الإسلامي؟

وأخذ يجفف عرقه ثم قال:

- لابد أن تصدر قرارًا بوقف الاحتفال غدًا يا سيادة المدير، أرجوك هذا لا يجوز.

وحاولت إقناعه في هدوء وقلت:

- ليس احتفالًا وليس مهرجانًا وليس يومًا خاصًا، ولكن غدًا يعبر الأطفال عن مشاعرهم الرقيقة بكلمات جميلة إلى الأم.

قال الشيخ محمود معترضًا:

- لا يجوز.

- غدًا كل تلميذ سيقول كلمة حب إلى أمه؛ اعترافا بفضلها ودورها، كما قال الشاعر حافظ إبراهيم:

الأمُ مدرسةٌ إذا أعددتها أعددتَ شعبًا طيبَ الأعراقِ

قال الشيخ محمود في ضيق:

- نحن لدينا مناسبتين للاحتفال هما عيد الفطر وعيد الأضحى، فكيف يكون هناك عيدًا للأم؟

قلت مرة أخرى أكرر كلامي:

- ليس عيدًا، وإنما فرصة لكل منا يعبر عن الحب لأمه، وفرصة لك يا شيخ محمود لتذكر أمك وتزورها وتطيب خاطرها.

وقف صامتًا والدموع تنساب من عينيه وقال:

- الله يرحمها، كانت تستحق أن أحتفى بها.

(٢٦)

صرخت الأم أمامي:

- لقد مللت من مشاكل هذه المدرسة، سوف أقدم شكوى ضدكم، أنتم مدرسة لا تنتمي إلى التربية أو العلم أو فضائل الأخلاق، لقد تعبت ومللت.

وشكرت الأم وتسامحت لهياج أعصابها، واستدعيت ابنتها التي تعاني من صعوبات في فهم مادة الرياضيات، واستدعيت المعلمة لتكون مع التلميذة تعيد شرح لها ما صعب عليها.

وفي اجتماع مجلس الآباء والمعلمين توقعت أن تواصل الأم صراخها وشكواها، ولكن إذ بها تقول في أسف:

- أتقدم بالشكر إلى مدير المدرسة الذي تحمل موقفي واحتوى غضبي، وأشرف على ابنتي بنفسه لتفَهُّم ما مر بها من دروس. أنا آسفة جدًا!

(٢٧)

وقفتُ في طابور الصباح، والتلاميذ جميعًا في لحظات سكون وترقب يتطلعون إلى علم مصر يرفرف فوق مبنى المدرسة.

صاح معلم التربية البدنية: صمتًا، انتباه، لا حركة! هذه تحية علم مصر. وصاح أحد الطلاب في حماسة هزت مشاعري:

– تحيا مصر! تحيا مصر!

وردد الطلاب: تحيا مصر ثلاث مرات بصوت علا في آفاق السماء، يتجاوب صداه على ضفاف النيل والمدائن والقرى والحقول، حتى سمعت الشعب المصرى يهتف ليزلزل حجارة الكون: تحيا مصر! تحيا مصر!

(٢٨)

كانت مصر في محنة، وطلابي في مأساة أخرى، إنهم يتساءلون:

– ماذا يحدث في مصر؟ من هم الثوار؟ من هم الأعداء؟ ومن الذي يضع القنابل بين الشجر الأخضر، وينشر الرعب في الشوارع والميادين؟

قلت لهم في ثقة:

– خلاصنا في العلم، والإيمان الصادق، وبناء الفكر والوطن.

(٢٩)

سمعت أحد الطلاب يقول ساخرًا:

- اليوم موعد الامتحان، يوم يُكرم المرء أو يهان.

اقتربت منه وقلت له باسمًا:

- هذه مقولة خطأ، الامتحان يوم التحدي والتغلب على الهوان، يوم انتصار عقل الطالب على اختبارات العلم، ومن يتعلم لا يهان أبدًا.

(٣٠)

كان درس اللغة العربية عن سيرة على مبارك، ظل المعلم يقرأ نص كتاب الوزارة ثم يناقش الأسئلة مع التلاميذ الصغار. قاطعت الدرس وقلت لهم: - مصر ثرية برجال عظام، مصر تحتوي تحت جناحيها عقول إبداعية في العلم والثقافة والتربية، علينا أن نذكرهم ونكتب عنهم بحثًا.

كانت مفاجأة أن ينهض أحد التلاميذ ويقول:

- مثل نجيب محفوظ حائز جائزة نوبل في الأدب.

وتلميذ آخر قال:

- كذلك أحمد زويل نال جائزة نوبل في الكيمياء.

وقال آخر: توفيق الحكيم ويوسف إدريس ومصطفى محمود والعقاد وطه حسين في الأدب.

وأضاف المعلم أسماء أخرى لهم فقال:

– عالمة الذرة سميرة موسى، وأستاذها العالم علي مصطفى مشرفة.

ونظرت إلى المعلم مبتسمًا، فآفاق المعرفة ليست كتاب الوزارة فقط، وإنما الكتاب ضوء يشير إلى الدرب.

(٣١)

سألت التلميذ الصغير الذي وقف أمامي حزينًا مكتئبًا:

– لماذا ترفض حصص اللغة الإنجليزية؟

نظر في وجهى ثم اغرورقت عيناه بالدموع وقال:

– مستر أحمد أهان كرامتى أمام زملائي، جذبنى من ملابسي، ووجه لي الصفعات، وألقى بي خارج الفصل مع الشتائم البذيئة.

وسألته عن سبب ذلك، فقال التلميذ في صدق:

– كنت أتحدث مع زميلي أثناء شرح المستر.

قدمت اعتذاري له، ووعدته أن لا تهان كرامة أحد في مدرستي، ووعدني أن يكون ملتزمًا بالانتباه أثناء الشرح.

وفي اليوم التالي وافقت على استقالة مستر أحمد من المدرسة.

(٣٢)

سألتني الصغيرة:

- أنت مدير المدرسة ويمكن أن تحل لنا هذه المشكلة، ألا ترى أن كتاب المواد الاجتماعية ضخم وبه مواضيع كثيرة دون فائدة؟

ابتسمت وقلت لها:

- ولكن الكتاب مفيد، يشتمل على معلومات ذات قيمة يجب دراستها.

وانصرفت التلميذة غير مقتنعة، وكنت واثقًا أنها تقول الحقيقة.

(٣٣)

استدعاني معلم التاريخ لمواجهة تمرد الطلاب ورفضهم للمنهج، وسألتهم وأنا حائر عن السبب، فقال أحدهم:

– هذا تاريخ ملوث بالدماء، حروب.. دمار.. غزوات.. احتلال.

وقال طالب آخر:

– سئمنا هذه القصص، من أحمس والهكسوس، وصلاح الدين والصليبين، والمماليك والتتار، وهجمات المغول وسقوط بغداد، والغزو العثماني، وهجمات الفرنسيين والإنجليز على عالمنا العربي، وجمال عبد الناصر والثورة وحرب فلسطين، والسادات واغتياله، ومبارك ومحاكمته.

وصاح معلم التاريخ: ماذا تريدون؟

قال طالب آخر:

– نريد أن نعرف أين ذهب العلماء في تلك الفترة؟ ماذا قدم الأدباء والشعراء؟ ما هي الاختراعات التي خدمت مصر أثناء هذه الأحداث؟ نريد أن نعرف أين الرجال المبدعون وماذا فعلوا؟

وأدركت أننا نواجه جيلًا لا يسامح ولا يعرف النفاق.

(٣٤)

وقف التلميذ يشرح درس العلوم باللغة الإنجليزية، دُهشت وزاد إعجابي بهذا الأسلوب التربوي في تقديم الدرس، وكان التلميذ يشرح ويعلق ويسأل، ويجيب على أسئلة زملائه في ثقة وثبات.

بعد الدرس سألني المعلم عن رأيي، فقلت له:

– لو كل معلم نهج هذا المبدأ في التعليم لصار عندنا آلافا من أحمد زويل وأحمد شوقي ونجيب محفوظ.

(٣٥)

أوقفني في الطريق وقال مبتسمًا:

– ألا تذكرني يا أستاذى؟

وبالطبع أدركت أنه أحد تلاميذي، ولكن بالطبع لا أتذكر اسمه أو المدرسة التي درست له فيها. وعانقني وقال مبتهجًا:

– التوفيقية الثانوية يا أستاذ، كنت معلمي هناك.

وعندما لم تنقذني الذاكرة رحبت به وسألته عن أحواله فقال:

- أنا دكتور في مركز البحوث العلمية، وأعد مشروعًا لاستغلال الصحراء في مصر.

وبعد أن ذهب تذكرت هذا الوجه، كنت ألمحه دائمًا يسأل ويناقش وينافس، وكنت أضيق من تعليقاته ونهمه الشديد للمعرفة.

(٣٦)

قال لي غاضبًا:

- أرجوك أريد عقابًا رادعًا لابني؛ فهو مشاغب ومثير للقلق ولا يريد أن يدرس.

قلت له:

- العنف ليس وسيلة للعقاب، تفاهم معه.

أمسك الأب بيدي وقال:

- لقد تربيت على العنف والشدة وهَأنا مهندس كبير في الدولة، هذا الجيل كالشجر العقيم لابد من غرسه في الأرض بقوة.

وتأملت كلمات الأب، هل هذا جيل لا يصلح معه سوى العنف والقسوة؟

(٣٧)

صُعقت وأنا أتابع حادثة في التلفزيون عن المعلم الذي ضرب تلميذه على رأسه بالعصا وسقط ميتًا.

وفي الصباح كنت أزور فصول المدرسة، وابتسم للطلاب وأحتويهم وأصافحهم، وأهمس لكل معلم:

– حذارِ العنف! إنهم براعم صغيرة في حاجة إلى الحب والحنان والاحترام.

(٣٨)

كانت مباراة كرة القدم، وخسر فريق المدرسة، وانهالت اتهامات على حكم المباراة حتى جاء كابتن الفريق متظلمًا. ابتسمت وقلت له:

– الهزيمة درس قاسٍ، ولكنه يُعلمنا أن نتحدى كل شيء من أجل الانتصار.

(٣٩)

قال لي تلميذى في خوف:

– غدًا عندنا كارثة في البيت.

واستفسرت منه مندهشًا فقال:

– سوف تتزوج أمي رجلًا آخر.

- وأين أبوك؟

- توفي منذ ثلاث سنوات.

وتمزق قلبي لهذا الصغير الذي سوف يواجه رجلًا آخر، ربما يجعل حياته حالكة السواد.

(٤٠)

انتشر الخبر بسرعة البرق في المدرسة، أحمد زويل سيكون ضيف الندوة الثقافية التي تقام كل أسبوع في المسرح. كنت قلقًا، كيف أعد له الأسئلة؟ هل أطلب من قسم اللغة العربية أن يقدموا لي بعض المعلومات عن العالم الكبير الذي أحبه وأقدره؟

قررت أن يكون الأمر مسئوليتي وحدي، دخل العالم واستقبله الطلاب بالهتاف والترحاب ولوحات تحمل كلماته وصور له عند استلام جائزة نوبل.

وطرحت عليه سؤالي:

- العالم الكبير نود أن نعرف كيف كان اكتشافك الجديد يساهم في إنقاذ العالم من أمراض وبائية خطيرة وإلى أى مدى حقق النجاح الكبير؟

ونظر لي العالم زويل في غيظ وضيق، وسأل أحد أصدقاءه عني فسمعت من يقول له: إنه حضرة مدير المدرسة.

وإذا بالعالم الكبير يتطلع إلى الطلاب ويقول لهم:

- سوف أقص عليكم قصصًا من حياتي عندما كنت صغيرًا مثلكم.

وشعرت بالاضطراب، ولكن نسيت كل شيء عندما تفاعل الطلاب معه وغرقوا في الضحك والانسجام.

وفي نهاية الندوة قال لي:

- يا أستاذ سؤالك كان يحتاج إلى شرح طويل قد لا يفهمه الصغار.

(٤١)

أسدل الصمت ستائره على فصول المدرسة، وانشغل التلاميذ بقراءة أوراق الامتحان. تأملت الوجوه هادئة في تفكير عميق، إلا تلميذًا كان يقاوم النعاس ويتثاءت كثيرًا ويميل برأسه على طاولته.

سألته: كيف تنام أثناء الامتحان؟

قال في ضيق: أمي جعلتني أسهر أذاكر طول الليل، وهَأنا لا استطيع أن أكتب.

سألت طبيبة المدرسة أن تصطحبه ليغسل وجهه ويتناول إفطاره، ثم يعود ليواصل الامتحان. وكان المعلم الملاحظ في الفصل ينظر لي في دهشة واعتراض.

(٤٢)

كان درسًا عن أسباب الحملة الفرنسية على مصر، وقد أبدع مدرس التاريخ من خلال شرح شامل وعرض للصور والأفلام التسجيلية، واستجاب الطلاب وناقشوا في عمق وفهم كبير أسعدني للغاية.

وعندما أكد المعلم على إعداد مشروع أو بحث حول نابليون وحملته على الشرق، اعترض أحد الطلاب وقال:

- عفوًا يكفيني ما درسته عن نابليون رغمًا عن رغبتي وأفكاري، ولكن أرفض أن أعد عنه بحثًا أو مشروعًا آخر.

وكنا ننصت إلى الطالب في دهشة ولا ندري ماذا يريد، ولكنه قال محدقًا في وجوهنا:

- إن نابليون سفاح كبير وليس بطلًا كما تتصورون، هل قرأتم كتابات العقاد عن الطغاة؟ إنه أحدهم!

وخارج الفصل سألت معلم التاريخ عن نابليون فقال:

- احتمال أن الطالب صادق في رأيه.

(٤٣)

قال المفتش الذي جاء من المنطقة التعليمية:

– لا تضيعوا الوقت في أنشطة ومسرح وموسيقى وألعاب بدنية، نحن على أبواب امتحانات آخر العام، نرجوا حذف هذه الحصص واستبدالها بمواد علمية.

وعندما ذهب إلى حاله، استدعيت الوكلاء ورؤساء الأقسام في اجتماع هام وقلت لهم:

– علينا الاهتمام أكثر بالنشاط والمسرح والموسيقى، وحصص الرسم والألعاب البدنية والمنافسات الرياضية، ورعاية الموهوبين في الهوايات المختلفة.

وهمست الوكيلة في أذني:

– هل هذا ماأشار إليه مفتش الوزارة؟

ابتسمت وقلت لها:

– إذا لم يشعر التلاميذ بالمتعة في المدرسة لن يتعلموا شيئًا.

(٤٤)

قلت للمعلم في حزم:

- يجب عليك الاعتذار للطالب؛ لأنك أهنته وظلمته دون وجه حق.

في غضب قال المعلم معترضًا:

- وهل من المعقول أن يعتذر المعلم للطالب؟

قلت:

- بالطبع علينا الاعتراف بأخطاءنا؛ ليتعلم منا الصغار فضيلة الصدق.

(٤٥)

جاء الأب متذمرًا وقال:

- كيف يُطلب من ابنتي أن تقوم بنظافة الفصل؟

وابتسمت وقلت له:

- ليست ابنتك وحدها ولكن معها مجموعة من فريق الصحة والنظافة.

ورد الأب معترضًا:

- **وأين عمال النظافة لديكم وأين العاملات؟**

قلت له محاولًا تهدئة أعصابه:

- **المدرسة هي بيت الطالب، وابنتك تؤدي ذلك برغبتها.**

وفي أثناء الحوار مع الأب، طرق الباب مجموعة من الطالبات ومنهن الابنة وقالت:

- **تسمحون لنا بإفراغ سلال المهملات؟**

وشهق الأب من الدهشة، وابتسمت للمفاجأة.

(٤٦)

اعترض طالب الثانوية العامة وقال:

- **أرجوكم، مللنا من قصص (الأيام) و(واإسلاماه) وغيرها، تلك التي درسها آباءنا وأجدادنا، ألا توجد روايات أخرى تقررها علينا الوزارة؟**

قلت للطالب:

- هذه روايات طه حسين وعلي أحمد باكثير، ألا تعلم من هما؟

قال الطالب مبتسمًا:

- على عيني ورأسي، لكن هناك أدب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس وزكي نجيب محمود ويحيى حقي وغيرهم.

وحين خرج الطالب من مكتبي قال وكيل المدرسة الذي تابع الحوار:

- جيل لا يفهم شيئًا!

ولكني نظرت إليه في عتاب وقلت:

- الجيل يفهم أفضل منا، الطالب على حق.

(٤٧)

وقف التلميذ الصغير يبكي قائلًا:

- كل مدرس يضربني، ويسخر مني، وأصحابي يضحكون، حرام عليكم، أنا عندى كرامة، عندي إحساس، احترموني شوية.

وسمعت شكوى تلميذي وقلت له:

- كلنا نحترم بعضنا، ولن أسمح لمعلم أن يجرح إحساسك أو يهين كرامتك، لك كل التقدير والاحترام.

وبعد أن خرج التلميذ من مكتبي أدركت من أين ينبع الإرهاب والتطرف.

(٤٨)

تقدم طالب الثانوي إلى مكتبي باقتراح تكوين جماعة الخطابة والخط العربي، وجماعة الصحافة والتعبير الحر، وقال لي:

- حين زار الإمام محمد عبده مدرسة التلميذ عباس محمود العقاد وشاهد كراس التعبير، قال له: ما أجدر هذا الفتى أن يكون أديبًا!

وحقًا أصبح العقاد من كبار مشاهير أدباء العالم العربي، فلماذا لا نشجع الطلاب الموهوبين؟

(٤٩)

من ضمن اقتراحات الطلاب لتحسين مسيرة التعليم، كتب أحدهم:

كان العقاد مدرسًا، وطه حسين والمازني وأنيس منصور وجان بول سارتر وزكي نجيب محمود، وسقراط وأفلاطون، وابن سينا.

كان هؤلاء المبدعون مدرسين عظام، خلقوا أجيالًا من الأدباء والعلماء والمفكرين، فلماذا لا تولي الدولة اهتمامًا لبناء جامعة المعلم المبدع؟

(٥٠)

التفوا حولي في فناء المدرسة، زهورًا تتفتح كل صباح تحت شمس يوم جديد وقالوا:

- نريد الاحتفال بيوم دعم الشعب السوري، هذه صديقتنا أمل من سوريا.

وفي اليوم التالي طرقت باب مكتبي تلميذة في المرحلة الإعدادية وقالت:

- تقيمون يومًا لدعم سوريا وتنسون العراق؟!

وأقمنا يومًا من أجل العراق، ثم تجمع حول مكتبي مجموعة أخرى من التلاميذ يقولون:

- وماذا سنفعل من أجل زملائنا من ليبيا؟

وقررت في النهاية أن يكون يوم الدعم للأمة العربية.

(٥١)

جلس المعلم أمامي أوجه له اللوم لفرط حنانه وإسرافه في التسامح مع الطلاب؛ مما أدى إلى تجاوزات كثيرة. نظر إليّ المعلم في عتاب وقال:

– سأقص عليك حكايتى مع العنف حين كنت طفلًا بالمدرسة الابتدائية؛ لتدرك مدى رفضي للعنف والشدة.

وقال المعلم في حزن:

– كان يوم إعدامي حين قلتُ في شجاعة للمعلم :أنا لم أحاول الغش، ولم...

وقبل أن تقفز كلماتي على شفتي، هوى بكفه على وجهي صارخًا:

– أيها الولد الفاسد الكاذب، أنت كنت تغش من ورقة زميلك. ونهضتُ من فوق الأرض أمسح الغبار عن ملابسي، وكنتُ حقا بريئًا من تهمة الغش.

وأصررتُ على الصدق، مقتنعًا أن هذا المعلم الجبار في ضرباته سوف يعجب بشجاعتي؛ لأني أقول الصدق.

وسقطتُ مرارًا على الأرض، أنا طفل الثامنة من عمري لا أدري ماذا أفعل في مواجهة هذا الوحش الكاسر! ويتلقاني المعلم بكلتا يديه ويضرب بجسدي النحيل عرض الحائط.

وأسقط مرة أخرى، ثم أنهض ليعاود توجيه اللطمات إلى وجهي وجسدي دون رحمة.

ويسألني صارخًا:

– قل الحقيقة أيها الكاذب وإلا!

ومن هول الضربات والألم يسري في جسدي اضطررتُ إلى الكذب! وقلتُ وأنا منهار في بحر دموعي:

– أجل كنتُ أغش!

وسكت المعلم واستراح، ثم ابتسم كأنه حقق انتصارًا كبيرًا، وقال للتلاميذ الصغار وهم يرتعشون من الرعب والخوف:

– هذا هو عقاب كل من يغش من زميله، وهذا الكاذب سوف يُعاقب غدًا في طابور الصباح.

وفي اليوم التالي كنت أنتظر حفل إعدامي أمام تلاميذ المدرسة الابتدائية.
وجاء المعلم وصرخ في وجهي:

– اخلع حذاءك بسرعة يا كلب، يا...

وكنا في وقت الشتاء، وبقايا دموع على وجه السماء، وأنا أرتجف من البرد، ومن الرعب، واستسلمت لحفل إعدامي بالمدرسة، وجاء أحد

عمال المدرسة وأطبق على قدماي العاريتين وأنا مستلقٍ على الأرض. وتحمس المعلم التربوي ورفع ذراعه في الهواء وهو يحمل عصًا رفيعة، وأخذ يُلهب قدماي بالضرب، ثم تركوني على الأرض أتوجع مذبوحًا. وانصرف التلاميذ الصغار وهم ينظرون بعطف وعيون دامعة. ومنذ ذلك اليوم، يوم إعدامي، تعلمتُ أن أكذب.

(٥٢)

شاهدته يقترب من المعلمة في خجل حاملًا هدية صغيرة ويقول لها:

- أمي ماتت منذ عام، فهل ممكن أن أقدم هديتي لكِ في عيد الأم وتكوني أنتِ أمي؟

وارتمى بين ذراعيها وعيناه تترقرق بالدموع.

(٥٣)

جاءت عاملة النظافة تبكي:

- اقتطعوا من راتبي مبلغًا من المال بسبب غيابي.

وحين سألتها عن السبب قالت:

- ابنتي كانت بالمستشفى تجرى لها عملية جراحية.

اتصلت بشئون الموظفين وقلت لهم:

– الإدارة موقف إنساني قبل كل شيء، يصرف لها مبلغ من المال مساعدة من أجل ابنتها الصغيرة.

(٥٤)

وقفت المعلمة غاضبة وقالت:

– زميلنا يوزع أوراق مراجعة على الطلاب.

وسألتها: وماذا في ذلك؟

قالت بصوت هامس:

– يا سيادة المدير إنه يحارب أرزاقنا.

وأيقنت سر تدهور التعليم في بلادنا.

(٥٥)

مواقف غريبة تمر بي، على الجدران لوحات شعرية للشاعر أحمد شوقي تقول:

صلاحُ أَمْرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعُهُ .. فَقَوِمْ النفسَ بالأخلاقِ تستقمِ

وفي مكان آخر نقرأ:

إنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت .. فإن همُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا.

وفي الندوات الثقافية نتحدث عن القيم الصادقة النقية، والتعاون والحب والحق والخير والجمال والعلاقات الإنسانية الراقية، ورغم ذلك تأتيني شكاوى من الطلاب بأن أحد المدرسين قد أطاح بالقيم والآداب عرض الحائط وقذف الطلاب بأقذع الشتائم.

فهل نعيد تربية المعلم أم الطلاب؟

(٥٦)

كانت مسابقة التصوير عن أجمل صورة من بلدي، وعند فحص الصور وجدنا صورة سيئة لنهر النيل والتلوث يطفو على سطح الماء وبقايا طيور عفنة، وفتات من الأطعمة تغطي ضفاف النيل.

وقالت الطالبة بفخر:

- تلك هي أجمل صورة تثير الثورة ضد التلوث!

(٥٧)

إنه ينافق المدراء، يتجاوز حدود سلطته، يدعي أنه يفهم كل شيء، ثم يرسل تقارير سرية عن المعلمين إلى المدير العام، ويشكو في المنطقة التعليمية من سوء الإدارة المدرسية.

أكثر من مرة حذرته، ولكن يبحث عن تحقيق ذاته بطرق غير مشروعة.

وأدركت لماذا نعاني من التخلف والبلادة!

(٥٨)

– لم يعد المعلم يستمتع بمكانة عليا في المجتمع.

هكذا قال لي صديقي ونحن نجلس في قاعة المؤتمرات مع الوزير، الذي يتحدث عن الكادر الجديد للمعلم، وأن الوزارة انتهت من بناء الف مدرسة جديدة.

وهمس لي صديقي:

– ألم يكن من الأفضل إنفاق نصف هذا المال على بناء فكر وحياة المعلم؟!

(٥٩)

جاءت الطفلة باكية، سألتها عن سر دموعها، لزمت الصمت، وقالت صديقتها:

- باباها الضابط بالقوات المسلحة استشهد أمس في سيناء.

وناحت عصافير فوق أشجار المدرسة، وخجلت من نفسي، ولعنت الإرهاب وأعداء الوطن.

(٦٠)

عجبت لحفيدي ذو الخمس سنوات يحفظ كلمات لموعد الاختبار مع إدارة المدرسة التجريبية، وعندما سألته قال خائفًا:

- يارب أنجح في الامتحان عشان أدخل المدرسة.

وأدركت كيف نزرع الخوف والرهبة في نفوس الصغار منذ التحاقهم بالمدرسة!

(٦١)

قال الطالب غاضبا: ما قيمة الـ **homework**؟ إنما عادة سيئة لا نستفيد منها شيئًا.

وقالت طالبة: الحمد لله مدرسي في البيت هو الذي يعمل الواجب.

وقال طالب آخر: وأنا مامتي تؤدي الواجب عني.

وجلست أفكر في وسيلة جديدة بديلة لهذا الواجب الممل.

(٦٢)

دخل الطالب غرفتي غاضبًا وقال:

- كيف للمعلم أن يسب ويلعن، ويتفوه بالكلمات النابية؟ كيف ذلك؟

وعندما سألت، قال المعلم:

- من حقي ألعنهم وأقول ما أشاء، وأضربهم بشدة حتى يستجيبوا للأخلاق الكريمة ويتعلموا.

نظرت إليه في عجب وقلت له:

- أخطأ المعلم وأصاب الطالب.

(٦٣)

أثناء زيارتي لقسم الحاسب الآلى كنت أشعر بسعادة والتلاميذ الصغار يبحثون عن المعلومات، ويصممون مشاريعهم العلمية مع أحدث برامج التكنولوجيا، إلا طالبًا كان في نهاية الفصل مستغرقًا في ألعاب لا تمت للدرس بصلة.

يبدو أنه أصيب بالهلع حين فجأة سألته عما يفعل، لزم الصمت قليلًا ثم قال بحزن:

– بابا يمنع عني استخدام اللاب توب، ووجدت فرصتى هنا في ممارسة هواياتي مع سباق السيارات.

وفي اليوم التالي خصصت يومًا لجميع التلاميذ لممارسة هواياتهم الخاصة فى الكومبيوتر وفي الألعاب الأخرى، واتفقنا أن يكون هذا **Fun Day**.

(٦٤)

كلما تحدثت مع مدير المنطقة وسألنى عن مشكلة ما، وقبل أن أشرح تفاصيلها يقول لي بثقة:

– أجل أعرف أنك أحسنت التصرف في ذلك، وأنت...

ويقص لي المدير وقائع الحدث، وأنا في دهشة كيف تسربت إليه هذه الأفكار؟! ولذلك قررت أن أبحث عمن يقوم بدور (رأفت الهجان) بالمدرسة.

(٦٥)

صحت بحدة في وجه المعلمة التي أهانت الطلاب ووجهت لهم الشتائم، وهددت وأنذرت وتوعدتها بإنهاء عملها بالمدرسة.

كنت في الحقيقة غاضبًا وثائرًا، ولكن عادت المعلمة باكية وقدمت لي ورقة كتبت فيها: أقدم استقالتي لأن المدير جرح كرامتي ومشاعري وتحدث معي بطريقة غير لائقة.

وفي نهاية اليوم قدمت اعتذاري لها، فقد قمت باستغلال مركزي في جرح مشاعرها.

(٦٦)

جاء أحد المدرسين المسئول عن نتائج امتحانات المدرسة، وقدم لي ورقة امتحان لطالب راسب وقال:

– اعتدنا كل عام أن نساعد هذا الطالب ونضيف درجات له لينجح.

وسألت: لماذا هذا الطالب؟

– والده من كبار رجال الدولة ويساعدنا جميعًا في المشاكل العامة، ويخرجنا من أزمات مع الإدارة المالية، وفي المقابل علينا نجاح ولده.

وشعرت بحزن شديد؛ لسطوة المال والنفوذ على قرارات المدرسة، ونظرت إلى ورقة امتحان الطالب واعتمدت نتيجه رسوبه، وقلت للمعلم:

– لا محسوبية في العلم، وليس هناك من يسيطر على شرف المهنة بنفوذه أو سلطانه أو أمواله.

(٦٧)

قال لي في يأس:

– المعلم هالك وضحية العصر، وشهيد في معركة يقف فيها وحيدًا.

وأدركت لماذا وقف الرسول (عليه الصلاة والسلام) في وجه أذى قريش وحده وتحمل، وكيف عانى المسيح من القتلة والخونة، وكيف وقف سقراط أمام المحكمة ليشرب كأس السم وحيدًا في شجاعة ودون تردد.

فهل كتب على المعلم أن يعاني القهر والهوان ويشرب كل يوم كأسًا من السم؟

(٦٨)

– هذا الطالب غبي جدًا! عليه أن يبحث عن مهنة يرتزق منها أفضل من التعلم.

وقلت للمعلم: احذر لأن كثيرًا من المعلمين اتهموا توماس إديسون بالغباء وأصبح من كبار العلماء.

(٦٩)

انتصف النهار وانكسرت حدة توهج الشمس، وانتهى اجتماعي مع مجلس إدارة المدرسة في يوم من أيام الصيف قبيل بدء الدراسة، وتطلعت من نافذة مكتبي فإذا الصمت يغلف الحديقة والجدران ومقاعد الفصول، ولا تسمع سوى حفيف الأشجار وزقزقة العصافير، وشعرت بحزن يتسرب إلى قلبي وقلت:

– مدرسة دون تلاميذ ليست إلا خرائب، ومبانٍ بلا معنى أو حياة.

(٧٠)

جاء أحد الطلاب وقال:

– أنا رئيس مجلس إدارة الفصل، وأريد أن تسمح لنا بالاجتماع لمناقشة مشاكل زملائنا مع المعلمين.

وقاطعت الطالب وكيلة المدرسة في ضيق ورفض وقالت:

– كفاكم عبثًا، تريدون الهروب من الحصص الهامة! لا اجتماع ولا مناقشات، أنا هنا مسئولة عن مشاكل الفصول.

ونظرت إليها معاتبًا، ثم قلت للطالب:

– يمكنكم اتخاذ ركنًا من المكتبة خلال فترة الراحة لمناقشة أموركم، وأرسلوا لي تقريرًا بما سوف تقومون به.

ابتسم الطالب وصافحني في ثقة ونظر إلى الوكيلة بانتصار وانصرف، واذ بها تجلس أمامي وتقول:

– أشعر بالإحباط فقد ساندت الطالب ضدي.

قلت لها موضحًا:

– نحن لا نحشو عقول الطلاب بالمعلومات، ولكن نحن نساعدهم على تطوير شخصياتهم لنعد قادة المستقبل.

(٧١)

قلت للمعلم: أن تستحوذ على مشاعر الطلاب، تتعاطف معهم، تساندهم، تعبر عن حبك ويمتد خارج ذاتك، وتوفر لهم مناخًا متسمًا بالأمان والحرية والإبداع، وتحفزهم للعلم والقراءة وإتقان المهارات المختلفة فتلك، هي ثروتك الحقيقية من الدنيا.

قال المعلم: ومن يتعاطف مع قضايا المعلم في هذا الزمن العنيف؟

(٧٢)

سألني مبتسمًا:

– هل حاز الطلاب إعجابك؟ لقد أجابوا على كل الأسئلة التي وجهتها لهم.

قلت له: ليس المهم أن تسأل أنت، بل على الطالب أن يطرح تساؤله عليك ويعرض الأفكار ويطلقها في حرية، ويناقشها معك، ويختلف أو يتفق، يقبل أو يرفض، يقتنع أو لا يقتنع، فهو يملك بادرة الحوار العلمي، ولا قهر في العلم.

(٧٣)

كان معلم التربية الإسلامية يناقش الطلاب في فضائل عمر بن الخطاب، تحدث بعضهم عن مناصرته للحق، العدالة بين البشر، وكيف كان يفترش العراء وينام في أمان، ثم وقف أحد الطلاب وقال:

– عمر بن الخطاب نشأ راعيًا لأبيه الخطاب ولم ينسَ ذلك أبدًا، ويجلس بين الناس في بساطة بعد أن تولى الخلافة وأصبح أميرًا للمؤمنين ويقول: "لقد رأيتني أرعى الغنم لأبي وهأنذا أنظر فلا أرى فوقي إلا رب العالمين".

ثم ينظر إلى ثروات كسرى من الحلي والذهب التي استولى المسلمون عليها ويبكي قائلًا: "لا أخشى على المسلمين إلا من إغراء الثروات".

واشتد إعجابي بملاحظات الطالب حين قرن بين تواضع أمير المؤمنين وخوفه من الثروات، فياليت زعماء العالم يقتدون بهذا النموذج الرائع.

(٧٤)

قرأ لي معلم التاريخ هذا النص فقال:

يقول المقريزي في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) عن سبب انتشار الفساد في مصر: "إن السبب الأول – وهو أصل هذا الفساد – ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل لشيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغٍ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة".

وعاد المعلم يقول ساخرًا: أخشى أن يتهم المقريزي بالتحريض ضد النظام.

ضحكت ساخرًا أيضا وقلت له:

– أرسل (لفت نظر) إلى المقريزي؛ ليكون حذرًا في حديثه الذي سيشعل ثورة ضد الفساد.

(٧٥)

خلال تجوالي في معرض الفن التشكيلى لطلاب المدرسة، همس أستاذ مادة الرسم وقال لي:

- طلاب عباقرة مبدعون خلقت منهم فنانين تشكيليين.

قلت له: ولكن مادة الرسم ليس لها كتاب نظري يتحدث عن تاريخ هذا الفن في مصر والعالم ويستعرض إنجازات رواده.

وصمت المعلم ثم قال:

- أعتقد أنه ضروري حقًا أن يكون لمادة الرسم كتاب.

- سوف يثري عقول الطلاب من خلال الصورة والنصوص، وتاريخ مجموعات كبيرة وسيرها وتراجمها لا يعرفها الطلاب، ومنهم محمود مختار وجورج البهجوري، وتحية حليم وأحمد نوار وأحمد زغلول، وإنجي أفلاطون ومحمد إسماعيل وأحمد شيحا، وزهرة أفلاطون وفاروق حسني وآدم حنين، وأحمد عبد الوهاب وحامد سعيد وحسن سليمان، وسيف وانلي جاذبية سري وحسين بيكار، وحامد ندا وراغب عياد وأدهم وانلي، ومحمد ناجي وكامل مصطفى وشفيق رزق، ومحمد صبري وصلاح طاهر وأحمد عبد الفتاح، وغيرهم.

ونظر لي المعلم في دهشة وانصرف في الحال.

(٧٦)

جلس معلم الموسيقى حزينًا يائسًا وقال:

- سيادتك ممكن تساعدني؟ نحن في حاجة إلى أجهزة الكترونية صوتية وإلى بعض من آلات العزف الموسيقى، وكل عام تقولون العام القادم! أولادنا لا يتعلمون شيئًا في الموسيقى، إنهم يلعبون، وحصص الموسيقى دائمًا يتم التعدي عليها من قبل حصص المواد الأخرى، لماذا؟ الموسيقى مادة هامة تتصل بالروح والمشاعر والفكر، فلماذا نهملها؟

فكرت فيما طرحه فنان الموسيقى وقلت له:

- اكتب كل ما ذكرته لرفعه حالًا إلى وزير التربية والتعليم.

(٧٧)

صرخ ولي الأمر غاضبًا:

- ليس من المعقول ما درسناه نحن في المدارس، هو نفسه الذي يدرسه الطالب بعد عشرين عامًا.

وعرض أمامي كتاب اللغة العربية والمواد الاجتماعية والرياضيات، وقلت له ساخرًا:

- تقصد ما درسناه نحن من خمسين عامًا، كيف ذلك؟

(٧٨)

صاحت الأم أمامي في انفعال:

– ابني يتعلم السلوك السيء من المدرسة، والألفاظ النابية التي نسمعها بين السوقة والعامة في الشارع، أين دور المدرسة؟

وفي اجتماعي مع الإداريين والمعلمين قلت لهم:

– يجب أن تكون المدرسة حصنًا للطلاب ضد الفساد في المجتمع، بل ويجب علينا أن نفكر في تغيير العقول والسلوك بالقيم قبل تدريس العلوم.

(٧٩)

جلست الصغيرة تبكي، فقدت نقودها التي كانت ستشتري بها بعض الحلوى، فمنحتها نفس القيمة المالية فابتسمت ومضت باتجاه مقصف المدرسة. وفكرت لماذا لا نؤسس صندوق الطالب التعاوني من تبرعات أولياء الأمور والطلاب والهيئات العلمية والمعلمين؟

(٨٠)

أسعدني الحظ أن أكون مصاحبًا للوزير، في جولته أثناء امتحانات الثانوية العامة بالمدرسة، وجدته يتوقف أمام طالبة حائرة لأن قلمها الأزرق لا يكتب، فأخرج الوزير قلمًا من جيبه وقال لها:

- هديتك مني لتكتبي وتنجحي.

وسمعت أحد المعلمين يقول لي:

- أكيد قلم ذهبي.

قلت له:

- يكفى أنه من الوزير!

(٨١)

في زيارتي لأحد الفصول وجدت معلم التاريخ يكتب على اللوح الأبيض: (الدرس الأخير) ثم قال للتلاميذ الصغار:

- هذا هو درسي الأخير، وغدًا سوف أسافر إلى خارج مصر للعمل، صدقوني لم أختر السفر، ولكن الغربة اختارتني والشقاء رشحني!

جفف دمعة سالت من عينيه وقال:

– أحبكم يا أبنائي، وأحب مصر وتاريخ مصر وعظمة مصر وشعبنا الأصيل، ولكن كتب على الفقراء الهجرة، والأغنياء يستمتعون بخيرات بلادنا.

وبدأت أسمع نهنهة الصغار في بكاء صامت، وأخرجوا أوراق بيضاء كتبوا عليها كلمات حب ورسومات، والتفوا حوله وهو يعانقهم فردًا فردًا.

خرجت والدموع تترقرق في عيني.

(٨٢)

سألتني التلميذة الصغيرة:

– يعني إيه ثورة؟ يعني إيه مظاهرات؟ نفسي أفهم!

ابتسمت وقلت لها:

– ثورة يعني احتجاج يعني رفض.

قالت الصغيرة ضاحكة: والله مش فاهمة!

وأدركت أني سوف أتورط مع التلميذة في حوار سياسي لا أعرف نتائجه.

فقلت لها مفسرًا:

– مش أنتِ أحيانا ترفضين طعام لا يعجبك؟

قالت الصغيرة:

- آه تقصد أعمل إضراب وتمرد.

- ما أنتِ عارفة كل حاجة.

- أيوه بس كنت بسألك.

(٨٣)

"وقد كان من نتائج الحملة الفرنسية على مصر إيقاظ الوعي القومي للمصريين، وإثارة إحساسهم بالوطنية والدفاع عن مصر". وضح ذلك من خلال دراستك لنتائج الحملة الفرنسية.

كان هذا نص أحد أسئلة امتحان مادة التاريخ للثانوية العامة، ووقف الطلاب أمامي معترضين وقال أحدهم:

- إن الشعب المصرى من قديم الأزل لديه إحساس وطني عالٍ.

وقال طالب آخر بحماس:

- قام الشعب بثورات ضد الطغاة قبل الحملة.

- الشعب قاد ثورة ضد الوالي خورشيد باشا وعزله من منصبه.

وفي الحقيقة شعرت بسعادة غامرة؛ لأن الجيل الجديد أكثر ثقافة ووعيًا وقدرة على التفكير النقدي. ثم قال أحد الطلاب ساخرًا:

- يبدو أن من وضع الامتحان لم يقرأ تاريخ الشعب المصرى.

وسمعت صوتًا آخر يقول:

- لماذا لا نقرأ تاريخ بلادنا بشغف؟

(٨٤)

قال لي في أسى:

- لماذا يبدو المعلم في بلادنا يائسًا مهمومًا ضائعًا، يشكو الغلاء الفاحش ويقتل نفسه في الدروس الخصوصة دون رحمة.

وتذكرت ما قاله أحمد شوقي:

قم للمعلم وفِّهِ التبجيلا .. كادَ المعلمُ أن يكونَ رسولا

وتخيلت كلمة (قتيلا)، ألا تكون أكثر واقعية من كلمة (رسولا)؟!

(٨٥)

أدركت أنه يحاربني في الخفاء؛ ليكسب مواقف أمام مدير المنطقة، سألته:

- كيف تبيح لنفسك ما هو خارج سلطاتك ومسئولياتك، وتحاول دائمًا تدمير إنجازات المدرسة؟

وقف حائرًا لا يدري ماذا يقول، وانصرف في صمت يطارده الهوان والسقوط.

(٨٦)

سمعت أحد الطلاب يقول لزميله:

- أسوأ ما في حياتي المدرسة!

ورد الآخر في ملل وضيق:

- وأنا كذلك كم أمقت الاستيقاظ مبكرًا والجلوس أمام مدرسين قساة القلب، دائما يصيحون ويغضبون ويهددون.

وتأملت الموقف، وفي اجتماعي مع المدرسين قلت لهم بحزن:

- إن اللعنة سوف تطاردنا إلى الأبد إن لم نغير من أساليبنا التقليدية ونواكب الفكر التربوى الحديث.

(٨٧)

في أحد الاجتماعات قلت: حقًا أمر مضحك، نعلن الحرب على الدروس الخصوصية وطلابنا جميعًا منغمسون فيها، والمدرسون يمارسونها جهارًا. فلماذا لا تجيز الوزارة قانون يحدد القيمة المالية للدرس الخاص؟

وفجأة قالت السكرتيرة:

– مكالمة تليفونية من مكتب الوزير.

وسمعت صوتًا من الطرف الآخر يقول:

– أرجوك ابحث لي عن مدرس لغات خبرة ليعطي ابنة الوزير في البيت درس خصوصي.

وكانت جدران الغرفة تضحك ساخرة من مواقفنا.

(٨٨)

لقد انتقد ابن خلدون أسلوب العقاب الذي كان سائدًا في عصره، وطلب من المعلمين استخدام الرحمة واللين مع الطلاب فقال:

– ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبد في التأديب.

واعتبر أن مجاوزة الحد في العقاب له أضرار على الطالب، ويعمل على إفساد أخلاقه وبذلك لا يتحقق الهدف من التعليم ويقول:

"من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وحمل على الكذب والخبث".

وأغلقت أوراق مقدمة ابن خلدون وفكرت:

- هل لو عرف ابن خلدون جيل الإنترنت والهواتف المحمولة والتابلت، وعصر العنف والفساد والإرهاب، هل كان سيقول ذلك؟!

(٨٩)

بعد عرض مسرحية (صقر قريش) هنأت الطلاب على الأداء الرائع، وتجسيد صورة عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة الإسلام في الأندلس، اقترب مني أحد الطلاب وسألني:

- هل يمكن في يوم ما للعرب المسلمين استرداد بلاد الأندلس هذا الحلم الضائع والفردوس المفقود؟

وارتعدت صفحات التاريخ تزأر في العراء على صليل السيوف وغبار حوافر الجياد وصهيل الفتوحات.

(٩٠)

بعد أن انتهى المعلم من إلقاء الضوء على حياة ابن بطوطة، ضحك أحد الطلاب وقال:

- كيف سافر من بلد إلى آخر ومن ميناء إلى ميناء ومن قارة لقارة، دون أن يحصل على تأشيرة دخول أو يحمل جواز سفر؟

(٩١)

دهشت لأن هواتف الطلاب المحمولة كلها محشوة بالأغاني الأجنبية الصارخة، ولا توجد أغنية من الفن المصرى الأصيل! فسألت أحدهم عن ذلك فقال مبتسمًا:

- لا أدري كيف تتحملون سماع أغنيات عبد الحليم أو أم كلثوم أو عبد الوهاب أو فريد الأطرش؟ الغناء الأجنبي فكر ووجود وحياة، والغناء العربي دموع ويأس وتهديد وخيانات وبذاءة.

(٩٢)

جاءت مكتبي باكية، وكتابها بين يديها مبعثر الأوراق ممزق الصفحات وقالت:

- مزقوا كتاب العربي ولا توجد نسخ أخرى في مخزن المدرسة.

وتناولت منها كتابها وبدأت في علاج التمزق بلصق الصفحات وترتيبها، وكانت كثيرة استغرقت مني ساعات، حتى شعرت السكرتيرة بالضجر وقالت:

- دع هذه المهمة لي؛ فليس ذلك الأمر التافه من اختصاص المدير.

نظرت إليها وسألتها:

- أتذكرين عندما كان تولستوي يرتق نعل الخادمة، وهو الذي يمتلك القصور والأراضى والمزارع ويعمل في أرضه آلاف المزارعين؟

وسألتنى السكرتيرة في بلاهة:

- تولستوي ده مين؟

(٩٣)

قال سارتر: الإنسان محكوم عليه بالحرية.

وقررت أن أضيف: والمعلم محكوم عليه بالشقاء الجميل.

(٩٤)

قال لي معلم الفلسفة:

- لماذا شرب سقراط كأس السم وذهب ضحية الفساد؟

قلت له:

- سقراط هو المعلم الذي جعلنا جميعًا نحتسي كأس السم كل يوم، ونبتسم ونقاوم.

(٩٥)

كانت الندوة حول أدب نجيب محفوظ وصورة مصر القديمة من خلال رواياته، وإذا بطالب يقول لنا:

- ماذا قدم لنا نجيب محفوظ سوى صور مشوهة عن المرأة المصرية، وأن أرض مصر العظيمة كان يسكنها مجموعة من القوادين والفتوات، فلا أعرف كيف نال جائزة نوبل؟

وتملكنا الصمت جميعًا، وسمعت من يهمس لي:

- الطالب لم يبتعد عن الحقيقة.

(٩٦)

التف حولي مجموعة طلاب وناقشوني في شجاعة المتنبي، وعبرت عن إعجابي ببطولاته الخارقة كما وصفها في شعره وقال:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني .. والسيُف والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

ولكن أحد الطلاب اعترض بشدة وقال:

- أنا أعتبر المتنبي متسولًا على أبواب الأمراء والحكام، وشعره لا يساوي شيئًا؛ لأنه شعر النفاق والتذلل من أجل عطايا السلطان.

وقال طالب آخر: لماذا تقول الكتب عنه شجاع وبطل وشاعر لا مثيل له؟ إنه أفاق وكاذب وأشعارة زائفة.

ثم قال طالب آخر:

- هل عرفتم كيف كانت نهايته، إنها الدلالة على سقوطه الحتمي.

(٩٧)

في صورة نادرة خلال مؤتمر تربوي، ظهرتُ بجوار الوزير أثناء لقاء صحفي له. وجاء من يبارك لي تواجدي بجوار الوزير، وقلت لهم مبتسمًا:

- صداقة طويلة بيني وبينه، أيام عشناها معًا.

وفوجئت كل يوم من يقدم لي شكوى أو التماس، ويرجوني أن تصل إلى يد الوزير لأنه صديقي. وشعرت بحيرة شديدة، ولكني جمعت أوراقهم وحفظتها داخل درج مكتبي وقلت إني قد أرسلتها له.

وحين جاء الوزير في أحد زياراته لتفقد الامتحانات وبينما كان يحتسي فنجان قهوته في مكتبي إذ بأحد المدرسين يذكرني بما فعلته لمظالم المدرسين وشكواهم.

وشعرت بالخجل حين سألني الوزير:

- أية مظالم؟

واضطررت أن افتح درج مكتبي وأقدم له الأوراق، فأخذ يتفحصها ويوقع عليها ثم تسلمها منه سكرتيره الخاص، وقال الوزير:

- لا يوجد مدرس في الوزارة لديه معاناة، انتهى الظلم، وكل مشاكل المعلمين لها حلول.

وبعد انصراف الوزير التفوا حولي جميعًا يمطروني بالقبلات والشكر العميق لسرعة إيجاد الحلول لمشاكلهم. وأنا لا أدرى كيف حدث ذلك؟

(٩٨)

كانت المسابقة عن علماء العرب والمسلمين، وإذ بورقة بحث غريبة أثارت إعجابنا ودهشتنا يعرضها معلم التاريخ. كتب الطالب: من قتل جمال حمدان؟ من قتل يحيى المشد؟ وسميرة موسى؟ إنهم الذين اغتالوا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب. وهم الذين حرقوا متاحف مصر وأشعلوا النار في الشجر، واصطادوا الأبرياء بالرصاص وسرقوا الحلم من شباب مصر في ٢٥ يناير ٢٠١١.

وقررنا جميعًا حجب الجائزة عن الطالب؛ بحجة أنه تطرق لموضوعات أخرى بعيدة عن موضوع البحث. ولكننا أيقنا إننا نواجه جيل واعٍ بقدراته وأفكاره وواقعه.

(٩٩)

قال الطالب باكيًا:

– أنا ظُلمت، فهل تقبل أن يظلمك الآخرين؟

وأدركت أن الأمر يحتاج إلى نقاش طويل.

(١٠٠)

ظلت تبكي كوردة في مهب الريح وتقول:

– المعلمة طردتنى من الفصل لأني نسيت أغلق هاتفي الجوال، وتعالى الرنين حتى آثار الضحك والضجيج.

– ألا تعلمي أن الموبايل ممنوع؟

– كنت أنتظر مكالمة من أمي؛ لأنها سافرت إلى العمرة وأريد الأطمئنان عليها.

(١٠١)

كان الحفل السنوي رائعًا قدم فيه الطلاب نص (هاملت) لشكسبير ودارت آلات التصوير وأجهزة الموبايل تصور العرض الكبير. وبعد الانتهاء جلسنا نسترجع الأحداث ونضحك، وإذا بسيدة تقتحم المكان صارخة:

– كيف تنتهي المسرحية قبل أن أرى ابني وهو يمثل؟ كيف ذلك؟!

واستغرقت في البكاء، ونظرنا في وجوه بعضنا وأدرك البعض أننا فتحنا ستار المسرح ساعة قبل الموعد المحدد.

وسمعت أحدهم يقول:

– المسرح التزام، وماقمنا به فوضى لا نظير لها.

(١٠٢)

اقترب مني المعلم المسئول عن إعداد شهادات الطلاب آخر العام، وقال في تردد:

– هذا الطالب راسب، ولكن نريد موافقة منك بإضافة بعض الدرجات لينجح.

وحين عرفت اسم الطالب أدركت أنه ابني، والمعلم يريد إنقاذه بكل وسيلة. ولكني صحت غاضبًا:

- العلم حرية، واحترام للأفكار، العلم نزاهة وتقدير موضوعي، ولا محاباة أبدًا.

وفي البيت واجهتني زوجتي بصراخها قائلة:

- أنت مدير المدرسة وابنك يرسب في الامتحان! لا أصدق ذلك!

(١٠٣)

جلس أمامي معلم الفلسفة وقال بحزن:

- ثلاثون عامًا وأنا هكذا دون أسرة أو أولاد، أعيش حياة عابثة مملة يقتلها الروتين والهموم اليومية، فأين حياتي كما قال ألبير كامو؟

وأنا أعرف أن زوجته توفيت ولم ينجب أطفالًا، وعاش وحيدًا يرى الطلاب نبع الأمل والحب. ودمعت عيناه ونهض قائلًا:

- سامحني كنت مخنوقًا بعذابي.

وابتسم حين التف التلاميذ حوله واحتواهم، ومضى معهم ضاحكًا.

(١٠٤)

رحبنا بوكلاء الوزارة ومدير المنطقة في ندوتنا حول (الأدب والتغيير الاجتماعي) تطرق رئيس قسم اللغة العربية إلى شعراء المقاومة وأدباء النضال السياسي، وذكر منهم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي، ويوسف إدريس وعبد الرحمن الأبنودي وفؤاد حداد، ومحمود درويش وتوفيق زياد وفدوى طوقان، وفاروق جويدة ونزار قباني وغيرهم.

كنت سعيدًا لثقافة المعلم، حتى قاطعه أحد الطلاب بورقه في يده وقال:

- لقد أغفلت أدباء التراث الذين صمدوا أمام قهر الحكام، ومنهم شرف الدين أبو المكارم بن أبي سعيد بن مماتي مؤلف كتاب (الفاشوش في حكم قراقوش).

وانفجر الجميع في الضحك، ولكن الطالب عاد وقال:

- أعتقد لو كتابه هذا نشر في عصرنا لتم مصادره الكتاب وشنق المؤلف الذي قال عن الحاكم الظالم قراقوش:

"إني لما رأيت عقل قراقوش محرفة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد - من عظم منزلته - أن يرد على

كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان".

ولم أستطع أن أقرر هل أبدي إعجابي بالمعلم أم بالطالب؟

(١٠٥)

أثناء عرض الطلاب لرواية (العجوز والبحر) للأديب أرنست همنجواي، كان الدرس الأخلاقي على لسان الطالب يقرر:

- ليس المهم أنك حاولت وفشلت ولكن المهم أن لا تنهار أو تيأس، ولابد أن نقاتل من أجل تحقيق طموحاتنا البريئة وأهدافنا السامية.

واقترب مني المدرس المسئول قال:

- مصر لن تنهزم، مصر تقاتل، أليس كذلك؟

(١٠٦)

قرر الطلاب أعضاء اللجنة الثقافية إرسال دعوة للشاعر فاروق جويدة للإحتفاء بقصائده الوطنية والعاطفية والإنسانية. وفوجئت برئيس قسم التربية الإسلامية يأتي معترضًا ويقول:

- يا حضرة المدير، كيف يستمع طلابنا إلى شعر الغزل الماجن الذي يكتبه هذا الشاعر؟

وابتسمت وقلت له:

- هل قرأت أشعاره؟

قال المعلم:

- لا، ولكني أعرف ماذا يقول.

وفي الحفل كان صوت الشاعر فاروق جويدة يغني قصائد الحب والانتماء إلى الحبيبة مصر.

واقترب مني المعلم ذاته وقال:

- ما أروعه شاعر! وماأجدر أن يُدرس شعره للطلاب.

(١٠٧)

كانت مأساة غريبة وفاجعة مبكية، حين لقت الأسرة حتفها في حادث كبير، ونجا طفل وحيد عاش مع خاله. ولكنه جاء يومًا باكيًا واحتضن إحدى المعلمات وتوسل إليها أن يعيش معها أو يظل في المدرسة.

قال الطفل:

- لا أحد يحبني وزوجة خالي تضربني، أريد أن أعيش فى المدرسة.

وفكرت لماذا لا ننشئ قسمًا داخليًا في المدرسة، يكون بمثابة بيت الحنان والحب للطلاب اليتامى، ويشرف عليه تربويون يؤدوا دور الأم والأب؟

(١٠٨)

كانت ندوة المدرسة عن (أهمية أن تكون مثقفًا)، تحدث فيها أحد المعلمين عن مصادر الثقافة المتاحة الآن وأهمية الكتاب في حياتنا، وكيف تضاءل دور المثقف في المجتمع ومواجهة قضايا الناس.

وأثناء النقاش قالت طالبة في حماس وتأثر:

– تتحدثون عن أية ثقافة؟ هل تلك التي تنتشر في وسائل الإعلام؟ هل تلك التي تسيطر على عقولنا نحن؟ أم ثقافة الطبقات العليا التي تنهش في قلب الوطن دون حساب أو رقيب؟!

إني أطالب برفض كل تلك الثقافات السلبية، ومحاكمة كل من يدعي أنه مثقف؛ لأنه وقف عاجزًا مشلولًا لا يساهم في توعيه أبناء الوطن.

وقال طالب بسخرية:

– لم نسمع عن ثقافة ما حركت شعب أو فجرت ثورة! ثقافتنا كهلة لا قيمة لها في مجتمع يطمح إلى الأعلى دائمًا.

(١٠٩)

كان مؤتمر وزارة التربية حول (تطوير التعليم وتوظيف التكنولوجيا الحديثة). وعلمت أن رئيس الجمهورية والوزراء وأساتذة البحث العلمي ورواد التربية وبعض من علماء مصر سوف يحضرون ليطرحوا آرائهم.

وقررت أن أتحدث بصراحة تدهش الحضور عن مشاكل التعليم والمنهج والمعلم، وأكشف كل الخبايا وأنشر أمامهم مشاكلنا بوضوح ودون خوف.

وحين تحدث الرئيس كشف كل شيء واعترف بواقع المعلم المتدهور وسياسات التعليم الفاشلة، ولم أجد ما أقوله وظللت أصفق بفرحة وأمل كبير في تطوير التعليم في بلادنا.

(١١٠)

في حفل آخر العام، شاهدت تلاميذ يجلسون في عالم البراءة، زهورًا مبتسمة نقية، عصافير تغرد من أجل الحرية، استعراضات جميلة، أغنيات وطنية وصوت كالملائك ينشد: تحيا مصر.. تحيا مصر.. تحيا مصر.

(١١١)

في يوم ما قررت أن أستقيل وأتفرغ للتأمل والذكريات والقراءة والأدب، زرت كل الفصول، التفوا حولي جميعًا طرحوا بعض المشاكل، وتحدث بعض المدرسين عن أمانٍ جديدة للعام القادم، وجاء معلمو الموسيقى يزفون لي وصول معدات وآلات موسيقية حديثة، ثم دخل بعض الإداريين مكتبي يحملون شهادة تقدير للمدرسة موقعة من وزير التربية والتعليم.

أطبقت على الورقة التي فيها استقالتي ومزقتها، وأسرعت للاحتفال بتفوق المدرسة واختيارها من المدارس المتميزة التي رشحتها هيئة اليونسكو للإشراف عليها.

(١١٢)

بعد أربعين عامًا في مجال التدريس، ماذا يمكن أن أقول؟ لقد تعبت كثيرًا وكافحت كثيرًا وقاومت كثيرًا من أجل تحقيق قيم الخير والحب والجمال والحرية. وخاطرت بطرح أفكار جديدة وتحديت القهر، ووقفت ضد العقول الحجرية التي لا تعرف الفكر أو الثقافة أو الفنون الرفيعة. وكل ما ربحت في هذا الرحلة أن الطلاب والمدرسين يتذكرون أنهم عاشوا فترة إنجازات إبداعية مع معلم ومفكر تربوي ومثقف، ومدير مزج العلم بالثقافة والقيم الأخلاقية والانتماء للوطن.

(١١٣)

صاح مدير المنطقة التعليمية في وجه أحد المعلمين الذي جاء متظلمًا من قهر ناظر المدرسة، وقال:

- احمد ربك أنك تعمل في مكان يتمناه الآلاف مثلك.

ورد المعلم في كبرياء:

- لا قيمة للعلم إذا أُهينت كرامة المعلم.

وحين خرج المعلم منكسر الخاطر قلت لمدير المنطقة وأنا أشعر بالحزن:

- يأستاذنا الفاضل، المعلم كنز، المعلم ثروة قومية يجب أن نرعاها ماديًا ومعنويًا.

ضحك الرجل بهستيريا وقال:

- أتصدقه؟ إنه يكنز الملايين من الطلاب الأغبياء.

(١١٤)

قالت الأم والدموع تنساب من عينيها:

– أعلم أن ابني مشاغب، ويخالف قانون المدرسة ونظامها ويستحق العقاب، ولكن ليس إلى حد الضرب المبرح وظهور كدمات في وجه الولد.

شعرت بالحزن العميق واستدعيت المعلم لمعاقبته، فجلس المعلم منهارًا وقال:

– كاد الطالب أن يتجاوز حده معي فكان لابد من عقابه بشده.

وفي اليوم التالي تحدثت مع مسئول التدريب والتطوير والتنمية البشرية عن عدة ندوات، حول التحكم في الأعصاب وكيفية السيطرة على الغضب، وتأسيس علاقات تربوية مع الطلاب.

(١١٥)

قال لي أحد المعلمين:

– أنت ولدتُ معلمًا، ثم أصبحت كاتبًا وفنانًا وظفت ثقافتك وتأملاتك من أجل الارتقاء بذاتك، ثم بالمعلم والطالب، ولكن أين النتائج؟ وأين الحصاد؟ مازلنا في نهاية العالم.

وارتجفت دمعة تدفقت في حنايا القلب.

(١١٦)

كانت مشكلة كبيرة أن يطلع المعلم على تقريره السنوي، فقد أصاب البعض نوع من الإحباط، والآخر تذمر وغضب، والآخر رفض تقديره وأكد أنه يستحق التميز والتفرد.

وفي العام التالي قدمت كشفًا لكل معلم بإنجازاته وسلبياته، وعهدت إليه بكتابه تقريره بنفسه. رجعت الأوراق لي خالية ولا توجد سوى عبارة واحدة:

"الرجاء أن يكون التقرير من قبل سيادتكم ولا خبرة لنا به"

(١١٧)

اقتحم مجموعة من طلاب الثانوي مكتبي في لقاء حاسم، صرخ أحدهم:

- يعنى ايه علم، مدرسة، منهج، كتاب، دراسة؟ يعنى ايه نجاح، رسوب، مذاكرة، مستقبل؟

وشعرت أني في مواجهة امتحان صعب، فقال طالب آخر بحزن:

- ما معنى المدرسة ونحن لا نشعر بالأمان في وطننا؟ قنابل تنفجر، حقائب السيدات تُخطف، أجهزة موبايل تُسرق من أيدي الطالبات كل يوم في الشوارع!

- تعبنا، ونشعر بالخوف، بالحزن، بالألم! نخاف على أنفسنا وأهلنا وأصحابنا!

- لا تعلمونا ولكن امنحونا وطنًا نشعر فيه بالأمان!

- لا علم دون أمان.

وشعرت بالانكسار! واحتويت الطلاب إلى صدري.

(١١٨)

جاءت التلميذة الصغيرة باكية وقالت:

- حقيبتي ثقيلة لا أستطيع حملها، أرجوك ابحث لنا عن حل لهذه الكتب الكثيرة كل يوم.

وجلسنا جميعًا نفكر في تلك القضية.

(١١٩)

اكتشفت حين يغادرنا معلم أحببناه وعشنا معه تفاصيل حياته، يتمزق القلب وتبكي العصافير فوق الشجر، وينتحب الطلاب حزنًا.

(١٢٠)

كلما ودعني طالب أو طالبة للانتقال إلى مدرسة أخرى، بكى الياسمين في مزارع روحي.

(١٢١)

شعر الطالب بالندم لصياحه في وجه معلمته، وقدم اعتذاره لتصرفه الذي اخترق قانون الاخلاق، ولكن فوجئت بأم الطالب تعنفه لأنه اعتذر. وأيقنت أن التربية الحقيقية كما قال حافظ إبراهيم هي:

مَن لي بتربيةِ النساءِ فإنها .. في الشرقِ علةُ ذلكَ الإخفاقِ

(١٢٢)

تسللت بجواري أثناء تجوالي في فناء المدرسة وقالت:

- زميلي كُسرت ذراعه أمس، وقد تطوعت أن اكتب له كل يوم حتى يشفى.

نظرت إليها في إعجاب، وحمدت الله أن طلابنا يسكن في أعماقهم الحب والرحمة والتعاون والقيم الجميلة.

(١٢٣)

قالت معلمة الرسم وملامح وجهها تعكس اضطرابًا وحزن:

- مشرف الوزارة يحذرنا من رسومات فيها ملامح أشخاص ويؤكد أنه حرام.

قلت لها بثقة: الفنون تغير الأفكار وتحرض على الإصلاح وتثير مشاعر الجمال في النفوس. نحن دولة مستنيرة بالعلم والإيمان، والفن حرية تعبير. ولك الأمر في التعبير برسومات فيها شخوص أو إنسان.

(١٢٤)

دُهشت حين قدمت لي المختصة الإجتماعية أوراق نُسخت من موقع المحادثات على الإنترنت بين طالب وطالبة تحدثا بكلمات تدمر القيم والأخلاق، بالإضافة إلى تبادل بعض الصور الشخصية.

لم أستطع قراءة هذه الطريقة الغريبة في الكتابة، التي يطلقون عليها (فرانكو اراب)، وقالت المختصة في ضيق:

- الطالب يشكو أنها تطارده بالألفاظ البذيئة والعبارات السيئة.

وكانت الرسائل تشير إلى وقت هذه الحوارات ما بعد منتصف الليل كل يوم، فالقضية خارج المدرسة ولكن شعرت بالخوف على الطالبة من هذا التطرف، وجلست مع جدتها التي قالت باكية:

- الطالبة وحدها، انفصل الأب والأم وتزوج كل منهما، وتعيش الطالبة وحيدة معي.

وارتجفت جدران غرفتي حزنًا، وظللت أفكر كيف نحتوى طلابنا من فساد الواقع وعبث التكنولوجيا!

(١٢٥)

عرض أمامي وكيل المدرسة فيديو على موقع يوتيوب لرقصات خليعة للطالبات والطلاب أثناء الرحلة المدرسية. وشعرت بالضيق والغضب والتقيت بهم جميعًا فقال أحدهم:

- كنا نمرح ونلهو وعنما قامت إحدى المعلمات بالرقص فعلنا مثلها.

وصرخت مذعورًا:

- هل كانت المدرسات يرقصن؟!

(١٢٦)

في ندوة حول انتصارات حرب أكتوبر طرح أحد الطلاب هذا التساؤل بجرأة:

- هل يأتي يوم ونحتفل بالانتصار على الفساد والإرهاب؟

(١٢٧)

سألته في غضب:

– كيف يمكن لمعلم مهمته الرسالة الأخلاقية والتربية الراقية، أن يسب الطلاب ويوجه إليهم أقذع الكلمات؟

طأطأ رأسه خجلًا، وانصرف يتعثر في السقوط والهوان.

(١٢٨)

سألت الطالب عن سر شغبه المستمر وتعديه على زملاء الفصل فقال:

– أنا لا أحب المدرسة، أريد أن أتوقف وأعمل في إحدى المهن المربحة.

وتعجبت لطالب في المرحلة الثانوية يفكر بهذه الطريقة، فعاد وقال:

– أخي الكبير مهندس دون عمل، وكذلك أختي تخرجت من كلية التجارة ولا تجد عملًا مناسبًا، فلماذا أستمر في الدراسة؟

وقلت له:

– أن تكون متعلمًا ودارسًا وجامعيًا وتمارس مهنة ما دون المستوى فسوف تصبح نموذجًا للآخرين، أما أن تكون بلا شهادات علمية فسوف يدمرك الواقع ويستعبدك أصحاب النفوذ والمال.

(١٢٩)

توزيع جدول الحصص يثير النقمة والغضب بين المدرسين، فالجدول يتم إعدادة إلكترونيًا على جهاز الحاسوب، وحين نود أن نغير في الحصص يقول معد البرنامج:

- لا يمكن سوف يتم تغيير جميع الحصص؛ لأن هذا ينفذ بطريقة آلية، وتلك آخر صيحات تكنولوجيا التعليم.

وتعجبت! إذا أردتُ تبديل حصة بأخرى يفرض البرنامج الإلكتروني علينا تغيير كل الحصص. واستدعيت المعلم القائم بالجدول وقلت له:

- لن يفرض الجدول الإلكتروني سطوته علينا، فلتذهب تكنولوجيا الإرهاب للجحيم! وعليك تبديل الحصص يدويًا.

ونظر لي المعلم بدهشة، وغرق في صمت غريب.

(١٣٠)

قال لي ساخرًا:

- ألا ترى أن الموسيقى وحصص الرسم، وغيرها من أنشطة للزراعة والصناعة والتدبير المنزلي والتمثيل والمسرح، مضيعة للوقت داخل المدارس؟

وتطلعت إلى وكيل المدرسة في رثاء وقلت له:

- دليل نهضة الشعوب ما ذكرته، وإهدار هذه الحصص نوع من التخلف والضياع، وماذا عن تدريس الباليه والأوبرا، والمسرح العالمي والآداب الرفيعة الكلاسيكية والرومانسية؟ هل مضيعة أخرى لوقت الطالب؟

(١٣١)

وقفت طالبة الثانوي أمامي في خجل وقالت:

- أنتم تقولون جهاز المحمول ممنوع، فلماذا لا يمنع على المدرسين؟

قلت لها بحزم:

- الطلاب يسيئون توظيف تكنولوجيا الهواتف المحمولة، أما المعلم فلا يمكن.

قالت في تحدٍ:

- أعرف كثيرًا من المدرسين يتفقون على الدروس الخاصة أثناء تواجدهم في الفصول، ولا أحد يراهم أو يعرف ماذا يفعلون؟ أليس هذا سوء توظيف للتكنولوجيا أثناء الحصص؟

(١٣٢)

في بدء العام الدراسي أكدت على أهمية التعلم النشط والمجموعات وتغيير الشكل التقليدى للفصل؛ لخلق تجربة علمية جديدة تثير عقول الطلاب، ويساهمون في إعداد الدرس مع المعلم.

تعلل بعض المعلمين بضيق حالتهم الإقتصادية وأن الدولة لا ترفع الأجور، وتدهور شخصية المعلم في المجتمع والنظرة إليه بأنه يكتنز المال من الطلاب.

قلت لهم دعونا نؤكد لأنفسنا إننا قادرون على التحدي ومواجهة مصيرنا رغم الصعوبات المالية. نريد مرة واحدة أن ينتصر الإنسان المثقف المتعلم في داخلنا على فساد الواقع وانهياره.

احتواهم صمت غريب وانصرفوا في انكسار.

(١٣٣)

صرخت الأم في مكتبي حزينة؛ لأن ابنها يتبادل الألفاظ البذيئة على صفحات الفيسبوك وقالت:

– لم أتصور أن يقول ابني هذا الكلام! أنقذونا من فساد اللغة والأخلاق.

(١٣٤)

أقسم ولي الأمر أنه لابد من مواجهة المعلم الذي وجه لابنه صفعة على وجهه. ولابد أن يردها إلى المعلم مرة أخرى.

وكنت في حيرة وحزن، وكم حذرت المعلم من ممارسة القسوة والعنف مع الطلاب! ولكني قررت أن لا يمس أحد كرامة المعلم حتى وإن كان على خطأ واضح.

(١٣٥)

قال ولي الأمر في حزن:

- هل تتابع هذا الصراع الغريب بين المدرسين؟ هذا يتحدث بسوء عن الجميع، وذلك يذكر الآخر بأنه لا يصلح للدرس الخصوصي، ومدرس يتفق داخل الفصل على موعد الزيارات المنزلية والسنتر الخارجي.

ثم أضاف في ضيق:

ما قيمة المدرسة إذا تحولت إلى سوق تجاري نبيع فيه الدروس والطلاب؟

(١٣٦)

بكت الأم أمامي قائلة:

- ماذا أفعل؟ إنها عاشقة تحب زميلها في المدرسة، وتكتب له على صفحة الفيسبوك والواتسآب كلمات الشوق والغرام، ماذا أفعل؟

قلت لها:

- لا تفقدي صداقتك معها، اقتربي منها أكثر، وليكن والدها حنونًا معها، ازرعي الأمان والحب والصداقة في البيت، ثم دعي الأمور الأخرى لإدارة المدرسة.

(١٣٧)

جاءت وكيلة المدرسة لتقدم لي نصائحها فقالت:

- أنت قررت أن تكون الاختبارات الشهرية في حزم ونظام مثل آخر العام، وهذا سيقلل فرص الغش بين الطلاب.

قلت لها في حزم:

- وماذا في ذلك؟

- لن ينجح أحد؛ لأنهم يعتمدون على فرص للغش، فيجب أن نمنحهم ذلك حتى لا نتحول للتحقيق من قبل الوزارة.

نهضت غاضبًا وصحت:

- ليرسب كل طلاب المدرسة، ولكن لن أسمح بإتاحة فرص للغش أثناء الاختبارات العادية!

(١٣٨)

صرخ الأب في مكتبي:

- مدرستكم ينتشر فيها نظام العنف والبلطجة، فهناك معلم يرغم الطلاب على الدرس الخصوصي، ومعلم يهدد برسوب الطلاب، ومعلم يسب ويلعن ويكسر قوانين الأخلاق، أليس ذلك بلطجة وعنف وقهر؟

(١٣٩)

اقتحم مكتبي حاملًا مسدسه الميري وصرخ:

– أريد المعلم الذي وجه صفعة لولدي! سوف أرد له الصفعة كما فعل.

وأصابني الرعب من هذا الأب الذي يشهر السلاح في وجهي، ولكن تمالكت نفسي وقلت:

– هل جئت لتمارس الإرهاب هنا؟ لقد سئمنا من الإرهاب بعد أن عاش معنا في كل مكان، وهنا مؤسسة تربوية ووجودك كأب أقوى من شخصيتك ووظيفتك الأمنية.

وحين أصر على الصدام مع المعلم قلت له:

– أنا هنا أمامك يمكنك أن تفعل بي ما تشاء، ولكني لن أعرض كرامة المدرس للإهانة أبدًا؛ فالمدرس فوق الجميع.

(١٤٠)

شاهدته يقرأ كتاب (أصداء السيرة الذاتية) ودعاني إلى قراءة أول قصة عن فرحة نجيب محفوظ بتعطل الدراسة بسبب مظاهرات ١٩١٩، وقال الطالب:

– هل تصدق أننا مازلنا نفرح إذا تعطلت الدراسة؟ فالمدارس منذ زمان تتميز بالسأم والكآبة. فلماذا تلوموننا؟

(١٤١)

دخلت طبيبة المدرسة مكتبي وبصحبتها إحدى الطالبات وقالت:

– رفضت تناول دواء خافض الحرارة الذي أرسلته أمها معها.

ودنت مني الطالبة الصغيرة وقالت في حياء:

– وددت لو أنت تعطيني الدواء، فقد كان أبي رحمه الله يفعل معي ذلك.

(١٤٢)

ابتسم المعلم في مرارة والدموع تترقرق في عينيه وقال:

- اليوم أجمل أيام حياتي!

وعلمت أن ولده الوحيد أصابته رصاصات الإرهاب في سيناء.

(١٤٣)

وقفت المعلمة أمامي باكية وقالت:

توفيت أمي أمس، وقررت أن أعمل اليوم دون إجازة من أجل طلابي.

(١٤٤)

قرأت على صفحة الفيسبوك كلمات الطلاب مع أحد المعلمين تقول:

- نحن في انتظارك في (السنتر) يا مستر كما وعدتنا العاشرة صباحًا يوم الثلاثاء، ولن نذهب للمدرسة.

وفي اليوم المحدد تغيب المعلم عن المدرسة، وأرسل رسالة على الموبايل تقول:

- اقدم اعتذاري عن الحضور اليوم؛ لأن ابني مريض.

(١٤٥)

وقف أمامي الطالب حزينًا وقال:

– بعد خروجي من المدرسة في الثانية والنصف بعد الظهر، التف حولي ثلاثة شباب من البلطجية وشهر كل منهم سكينًا في جسمي، وسلبوا منى الموبايل الجديد.

(١٤٦)

صرخ وكيل المدرسة منزعجًا أمامي:

– نحن بصدد فتنة طائفية يا سيادة المدير، أنقذنا!

وعلمت أن هناك نزاعًا بين طالب مسلم وآخر مسيحي، وكل منهما وعد بحضور أتباعه لمعركة بعد اليوم الدراسي.

وجاء الطالبان أمامي، وظللت أتحدث معهما عن تسامح الأديان واحترام العقائد وتقدير الصداقات، والتوافق في الأهداف العلمية والإنسانية.

وعندما سألتهما عن سر المشاجرة والتحدي، قال أحدهما مبتسمًا:

– نحن أصدقاء وكنا نمزح ونلهو معًا.

ورمقت الوكيل بنظرات عتاب وغضب.

(١٤٧)

على صفحة الفيسبوك للطلاب شاهدت صورًا ساخرة عن المعلم، وتعليقات ونكات وعدم تقدير، وشعرت بالحزن الشديد كيف يصبح معلم الأجيال مثارًا للضحك بهذه الصورة؟

(١٤٨)

سألتني الطالبة مبتسمة:

- لو تدرس لنا داخل الفصل لأصبحنا جميعا متفوقين، ولكنك المدير.

سألتها: ولماذا أنا؟ هناك أساتذة أفاضل على قدر عالٍ من العلم والخبرة.

قالت الطالبة:

- ولكنك تحترمنا وتحبنا.

(١٤٩)

إعلانات تغطي جدران الشوارع، عن ملك اللغة العربية، وإمبراطور اللغة الفرنسية، ولورد اللغة الإنجليزية، ومستشار الاجتماعيات، ودعوة للطلاب لحجز مقعد لدى هؤلاء جميعًا.

وتعجبت كيف نمتلك هؤلاء العباقرة ومازال التعليم في انحطاط؟!

(١٥٠)

سألني أحد أولياء الأمور في اللقاء:

- أنت مع من؟ هؤلاء أم أولئك؟ فالوطن انقسم قسمان!

قلت وأنا أدرك رموز كلماته:

- أنا مع مصر، مع الوطن، مع كل من يزرع شجرة على ضفاف النيل، مع كل من يعلم التلاميذ معنى الخير والحب والجمال والحرية، مع كل مزارع يحرث الأرض الجدباء لتصبح حدائق خضراء، مع كل عامل يجتهد في مصنعه، وكل عالم يبتكر، وكل مثقف يبدع، مع كل أم تحنو على الجيل الجديد، وكل أب يواجه الشدائد ليمهد حياة كريمة لأبنائه، أنا مع هؤلاء الذين يعشقون تراب مصر.

(١٥١)

دخلت السكرتيرة مكتبي منزعجة وهي تقول:

- ولي أمر الطالب المشاغب حضر.

قلت لها دون مبالاة:

- دعيه ينتظر حتى أنهى هذه الأوراق.

قالت السكرتيرة في قلق:

- لا يمكن له الانتظار؛ إنه مسئول كبير في الوزارة.

وظللت أكمل عملي وقلت لها ببساطة:

– إنه ولي أمر وليس لى علاقة بوظيفته، وعليه الانتظار.

(١٥٢)

تبدأ الحياة، تشرق شمس الوطن، تحلق العصافير في الأفق حين ينشد الطلاب بصوت عالٍ:

– تحيا جمهورية مصر العربية!

ويتجه الطلاب إلى فصول الحب والجمال والحرية.

(١٥٣)

سألت الطالب مندهشًا:

– كيف توجه لزميلك في المدرسة ألوانًا من السباب تحطم صرح القيم الأخلاقية؟!

ابتسم الطالب وقال:

– أستاذي أنا لم أقل شيئًا جديدًا غير ما نسمعه في مسلسلات التلفزيون، وفي الشارع حول بيتنا!

وفكرت كثيرًا، إن أولادنا ضحايا مجتمع متدهور أخلاقيًا.

(١٥٤)

في محاضرة حول العنف في المدارس قلت للطلاب:

- مشكلتنا الآن أخلاقية، عنف، صراع، تحدٍ، تهديد، وكل ذلك من أجل أسباب تافهة.

وقف أحد الطلاب وقال بشجاعة:

- نحن محاصرون بالعنف والحروب وصور الإرهاب من كل مكان، سامحونا أنتم السبب أنتم السبب!

وضجت القاعة بالتصفيق.

(١٥٥)

طرقت مكتبي، نظرت حولها في ضجر، وجلست ساقًا على ساق ثم في كبرياء التفتت لي وقالت:

- أريد أرقام تليفونات بعض المدرسين من أجل درس خصوصي لأبنائي.

ابتسمت في سخرية وقلت لها:

- أقدم اعتذاري، أنتِ جئتِ المكان الخطأ، هذه مؤسسة تربوية تعليمية، وليست سوبر ماركت لبيع الدروس الخصوصية.

نهضت مسرعة غاضبة، ومضت وصوتها تتكسر نبراته بكلمات بلا معنى.

(١٥٦)

رفضت السكرتيرة أن تسمح للطالب بمقابلتي، وسمعته يقول لها بفخر:

- المدير صديقي ونحن على صفحة فيسبوك واحدة.

وابتسمت ولذت بالصمت.

(١٥٧)

ضوء الفجر الخافت في لحظات بزوغ، والشمس مازالت خجلى تغفو بين وسائد السحاب، وصوت مآذن المساجد يعلو بالصلاة.

أيها النهار القادم إلينا، أيتها السماء الزرقاء الصافية، أيتها الطيور التي بدأت تغرد في الفضاء، ادعوا جميعًا أن يمر هذا اليوم في المدرسة دون مشاكل، ولو مرة واحدة في الأسبوع دون مشاكل يا رب!

(١٥٨)

صرخ الأب في وجهي غاضبًا:

- ما دام إبني يُضرب ويهان كل يوم من هذا المعلم، فسوف أقوم بتأديب المعلم بنفسي.

قلت له في غضب:

- ما معنى أن تضرب المعلم؟ هل الأمر فوضى؟ هناك قانون، هناك نظم لمعاقبة المعلم وجزاءات توقع عليه.

نظر لي في تحدٍ وقال:

- أستاذنا المدير الفاضل، لم يعد هناك قانون في البلد!

(١٥٩)

وقف الطلاب أمامي فيما يشبه إضراب عام وقال أحدهم:

- من الممكن أن نكون مشاغبين، من الممكن أن نمارس نوع من المزاح داخل الفصل، ولكننا على قدر عالٍ من الخلق والسلوك الجيد.

سألتهم عن مشكلتهم فقال آخر:

- نحن نرفض أن يقول عنا أستاذ اللغة العربية أننا جيل فاشل، ثم يوجه سيلًا من الكلمات البذيئة علنًا أمام الجميع.

قدمت اعتذاري لهم، وأرسلت ورقة إلى معلم اللغة العربية كتبت فيها:

- عليك الاعتذار للطلاب أو تقديم استقالتك.

(١٦٠)

قالت الأم في حزن شديد:

- ابنتي مجتهدة متفوقة، كيف تكون درجتها سيئة في امتحان نصف الفصل الدراسي؟! أكيد هناك خطأ.

وعند مراجعة أوراق الطالبة اكتشفنا خطأ في الجمع والرصد؛ ولذلك تقدمت باعتذاري للطالبة والأم.

وبدأت أعيد التفكير في أعضاء لجنة رصد الدرجات.

(١٦١)

قلت في أحد المؤتمرات التربوية:

– نحن في حيرة، هل نُصلح أخلاق المعلم أم الطالب؟!

(١٦٢)

اعترض الطلاب لوجود كاميرات مراقبة داخل الفصول، وتقدم أحدهم وقال بشجاعة:

– دعونا نتعلم معنى الالتزام دون مراقبة، نريد أن نشعر أننا في مدرسة تفرض الاحترام قبل القهر، وتعزز الثقة في الطلاب قبل المراقبة.

(١٦٣)

جاء باكيًا يقدم تقرير درجاته السيئة في جميع المواد وتوسل قائلًا:

– هل من الممكن أن أغير الدرجات إلى الافضل حتى يراها أبي؛ لأنه لو شاهد هذا التقرير سوف يمزقني؛ فهو قاسٍ لا يرحم.

وبالطبع رفضت هذه الفكرة الشيطانية وقلت للطالب:

– واجه الموقف بشجاعة، وكن صادقًا ولا تزور في الدرجات.

وفي اليوم التالي التقى بي ولي الأمر وعبر عن فرحته قائلًا:

- شكرًا لجهودكم، ابني حصل على الدرجات النهائية في جميع المواد.

(١٦٤)

جلس أمامي في يأس وقال:

- ما جدوى هذا الشقاء للطالب في الدراسة؟ وأموال تنفق ودروس خصوصية ومشاكل لا حصر لها، وبعد الجامعة يجلس في البيت بجانب أمه يندب حظه دون عمل أو أمل!

(١٦٥)

وقف الطالب باكيًا قائلًا:

- أريد العدل! أنا وزميلي أثرنا الشغب في الفصل، المختص الاجتماعي أعطاني استدعاء لولي الأمر وزميلي الآخر لم يفعل معه شيئًا؛ لأن والده مدرس في المدرسة.

(١٦٦)

شاهدت في أخبار التاسعة مساءً كيف يتم مطاردة أوكار المعلمين التي يجمعون فيها الطلاب للدروس الخصوصية، وشعرت بالحزن لصورة المعلم في وطني، كيف يهان بهذه الصورة؟!

وتذكرت كلمة رئيس وزراء ألمانيا حين اعترض القضاة على رواتبهم، وطالبوا أن تكون مساوية لرواتب المعلمين.

صاحت ميركل غاضبة:

– وهل يمكن مساواة وظائف أخرى بمكانة المعلم؟

(١٦٧)

كنت أقف أمام طلاب المرحلة الإعدادية، وسألتهم عن رجال حازوا جائزة نوبل من مصر، وساد صمت عميق، وبعد فترة قال أحدهم بتردد:

– أحمد زويل.

صفقنا جميعًا للطالب، وسألتهم عن أديب مصري حصل على جائزة نوبل في الآداب، فلم أجد من يقول نجيب محفوظ.

وسألتهم عن نجيب محفوظ فإذا بهم لا يعرفون شيئًا عنه، واستبد بي الحزن، وخرجت من الفصل وددت لو أجمع كتب المناهج المقررة وأشعل فيها النار.

(١٦٨)

قال أحد المعلمين ساخرًا:

– الفصول أقرب إلى أكوام من القمامة، كيف لا يقوم التلاميذ بالحرص على نظافتها؟

قلت للمعلم:

– علينا أن نبدأ نحن بجمع بعض أوراق القمامة من الأرض ووضعها في سلال المهملات ليرانا الطالب ويتعلم مننا.

خرِج المعلم ساخطًا!

(١٦٩)

في لقائي الأسبوعي مع رؤساء الأقسام، ناقشنا أهم قضية وهي الواجب المدرسي أو **Homework**. وقررنا أن يتحول إلى بحث أو مشروع أو فكرة يجسدها الطالب كتابة أو رسمًا أو تصويرًا، بحيث تكون مصدر متعة له وليس همًا كبيرًا.

(١٧٠)

قالت الطالبة بحزن:

– كلما حاولت الاعتذار عن أخطائي، رفضت المعلمة وصرخت في وجهي:

– امشي من قدامي، لن أقبل اعتذارك.

(١٧١)

اعترض الأب على قرار وقف ابنه عن الدراسة لمدة ثلاثة أيام وقال:

– يجب البحث عن عقاب آخر أكثر شدة؛ لأن الطالب يفرح بهذا العقاب ويعتبره مكافأة ليلهو ويمرح كما يحب في البيت.

وما زلنا نفكر في طرق أخرى للعقاب.

(١٧٢)

قال أحد المدرسين أثناء الاجتماع:

– هناك مشاكل يجب ألا نتوقف عندها وندعها تمر بسلام.

(١٧٣)

صاح مدرس التربية البدنية الذي يقود طابور الصباح:

- الآن تحية علم مصر، أريد صوتًا يهز أركان المدرسة ويسمعه الناس في كل مكان، إنه علم وطنك، رمز بلادك، حبك الكبير!

(١٧٤)

تسلل بعض الطلاب إلى مكتبي وقالوا:

- لدينا ملاحظة على بعض الأساتذة.

- أرحب بكل اقتراح لديكم، تفضلوا.

- بعض الأساتذة تتغير طريقة شرحهم حين تزورنا في الفصل، يبذل جهدًا أفضل في الشرح والمناقشة بطريقة أفضل من الأول.

(١٧٥)

جلس أمامي يحدثني عن صعوبات عمله في مركز أبحاث الطاقة، وكيف يتوقع لمصر إنجازات سلمية عالمية في الذرة، وابتسم وقال:

- كل ما أرجوه مراعاة ولدي ومتابعته يوميًا؛ فأنا قلما أجد الوقت الكافي للحوار معه.

(١٧٦)

كتب أحد أولياء الأمور على صفحة الفيسبوك للمدرسة:

– كان زمان على أيامنا اهتمام بالخط في اللغة العربية، وكان لدينا معلم لفن الخط يدرس لنا، ويوزع علينا كتاب يحمل أجمل أنواع الخطوط العربية، فلماذا أهملت الوزارة هذا الجانب؟

وقررت رفع مذكرة لسيادة الوزير لتعزيز قيمة حصة الخط العربي.

(١٧٧)

صرخ الأب معترضًا:

– كيف تتلقى ابنتي دعوة من صديقتها للذهاب إلى (كايرو فيستفال) والمقاهي العامة لشرب النرجيلة؟!

(١٧٨)

كان يومًا غائمًا، وأنا أقود سيارتي على الطريق الدائرى في الصباح الباكر أفكر في مشاكل الطلاب وظاهرة العنف والقسوة بينهم. يبدأ الأمر بالمزاح ثم ينقلب إلى معركة تستخدم فيها الأيدي والأرجل، وتكون نتائجها بعض الكدمات في الوجوه ونزيف في الأنف أو الفم، فمن أين يأتي هذا العنف؟!

وفجأة اهتزت سيارتي في إثر صدمة سيارة أخرى من الخلف ووقفت أتطلع الأمر، وجدت وجهًا قبيحًا غاضبًا يسب ويلعن رغم أنه المخطئ!

(١٧٩)

فرح الطلاب لأن ضيف الندوة الثقافية الفنان الملتزم محمد صبحي، وسمعت أحدهم يقول:

– سنضحك كثيرًا

وفي الندوة تحدث الفنان عن مصر، وتاريخها وعظمتها وكيف ظل هذا الشعب باقٍ يقاوم، ويموت منه الآلاف في الحروب ويضحك ويقاوم، ومصر تنجب العلماء والمفكرين، ويموت منها الشهداء في سينا والعريش.

وتظل مصر تحلم بالنهار الجديد، وعلا صوت حليم بأغنية عدى النهار، ولمحت عيون الطلاب يترقرق فيهم الدموع.

(١٨٠)

لماذا يطرد المعلم الطالب خارج الفصل؟ قضية شغلتني كثيرًا وقررت أن أضع قانونًا لا يسمح بذلك.

(١٨١)

خرج المدرس من الفصل منهارًا يلعن الطلاب والزمن ويقول:

- لم يحدث أن كنا بمثل هذا الشغب من قبل، كنا ملائكة، فمن أين جاء هؤلاء؟

(١٨٢)

قال أحد المدرسين ضاحكًا:

- تصور صدر قرار من وزير التربية بمصادرة أوكار الدروس الخصوصية، ومطاردة المدرسين وتعقبهم في كل مكان.

وقال مدرس آخر:

- يجب مطاردة الأطباء الذين يذهبون للمرضى في البيت، ومطاردة رجال الأعمال الين يزورون العملاء في مكاتبهم الخاصة.

وصاح مدرس في غضب:

- يا جماعة حل هذه المشكلة في راتب المعلم، أنقذوا المعلم من التسول على بيوت الطلاب، وأنقذوا أولياء الأمور من جشع المعلمين!

(١٨٣)

قالت إحدى المعلمات:

– حصص الاحتياط فاشلة، لا أحد من الطلاب يتعلم ولا يدرس والمدرس يعتبرها حصة للراحة، فما العمل؟

(١٨٤)

كانت فكرة مثمرة طرحها أحد المدرسين فقال:

– قبيل أسبوع الامتحانات تقام مراجعات شاملة في جميع المواد، وبذلك نمنح فرصة للطلاب للمراجعة دون أن يتم الاستيلاء عليهم من قبل مراكز الدروس الخصوصية.

(١٨٥)

قالت الأم تفخر بذاتها:

– أتابع مشاكل المدرسة وأكتب عنها على صفحات الفيسبوك، أنا متفرغة لكم وكلما حكى أولادي عن مشكلة ما أكتبها لكم على الفور.

وتذكرت هذا الوجه الذي أراه دائمًا، تعرض المشاكل رغم أنها لا تخص أبناءها. فما أسوأ التكنولوجيا التي كشفت كل شيء!

(١٨٦)

صرخت وكيلة المرحلة في وجوه الطلاب قائلة:

- مشكلتنا أخلاقية، كيف يمكننا الارتقاء بأخلاق وسلوك الطلاب؟

(١٨٧)

همست الطالبة في أذني بخجل:

- هل يمكن أن أسجل رقم هاتفك الخاص؟

وعندما سألتها عن السبب، ابتسمت كوردة تتفتح في الربيع وقالت:

- أريد أن أرسل لك رسالة شكر وتقدير.

احتوتني بهجة لا حد لها، وأشرقت في سمائي شموس مضيئة بالحب والأمل والحياة.

(١٨٨)

سألني الطالب الصغير في براءة:

- كيف تحتسب مادة الرسم والحاسب الآلي ضمن المجموع العام للنجاح، وتحذف درجات مادة التربية الإسلامية؟

وقفت حائرًا، لا أدري ماذا أقول؟

(١٨٩)

في محاضرة بعنوان (العلاقة بين المعلم والطالب)، وقف المحاضر يحاول تهدئة الطلاب ليبدأ حديثه، فلم يستجب له أحد. صرخ الرجل في الوجوه، ثم هدد وتوعد، وأنذر بعقاب شديد.

ساد صمت عميق، تطلعت خلاله العيون إليه في غضب ورفض وأصوات احتجاج وتذمر، وفي الحال أصدرت قرارًا بإلغاء هذه الندوة.

(١٩٠)

في لقاء مع الطلاب سألني أحدهم:

- لو كنت رئيسًا لمصر ما هو أول قرار لك؟

ابتسمت وقلت بصدق:

– إعداد برامج لتأهيل معلم مثقف على خلق عالٍ، وتمزيق المناهج القديمة السقيمة وكتابتها من جديد، وبناء مدارس كثيرة وأن يشارك في الإدارة طلاب المدرسة.

وصفق الجميع.

(١٩١)

خجلت وأنا أتابع برامج التلفزيون من تلك الأغاني الصفيقة، والأفلام التي تخجل الشموس من مشاهدتها، وبرامج الحوارات مع أنصاف الفنانين والمثقفين، والأكاذيب والشائعات، وحوادث الإرهاب ودمار المدن في ليبيا وسوريا والمجاعات في أفريقيا، وجرائم الاغتصاب والتحرش وخطف الأطفال.

وقلت في حزن:

- كان الله في عون أولادنا الطلاب من هذا الوباء الذي يدعي التلفزيون!

(١٩٢)

السيد الفاضل معالي وزير التربية المحترم،

تحية طيبة وبعد،

نأمل من سيادتكم تخصيص ميزانية لتدريب المعلمين، وإعدادهم على مستوى عالٍ من العلم والثقافة والأخلاقيات والتربية؛ لأن معظم هؤلاء يحملون شهادات علمية ولكن ليسوا مثقفين لمواكبة المناهج وتطور المعلومات وتكنولوجيا العصر.

مدير مدارس الحب والجمال والحرية.

(١٩٣)

في لقائي مع مدرسي المرحلة الثانوية، قال مدرس الدراسات الاجتماعية:

– مناهجنا في حاجة إلى إضافات وحذف وتجديد وبعث مرة أخرى.

ضحك الحضور وأكدوا أن هذا في الأحلام.

(١٩٤)

دائمًا ما تثير أيام الامتحانات الجدال والغضب، فما شيء أشد كراهية للمعلم أكثر من وقت الملاحظة في الامتحانات!

(١٩٥)

قالوا عنه إنه معلم يتصف بذكاء وأبوة حنونة وحكمة نادرة، وفي مكتبي سمعت ضوضاء وصوته يصرخ في الطلاب يهددهم ويتوعدهم إذا خالفوا النظام!

(١٩٦)

أبنائي الطلاب، يا طيورًا تُحلق في شمس النهار، يا حقولًا واعدة بالثمار، يا عقولًا تحلق بالأفكار، أهلا بمنابع العلم والإبتكار.

أحبكم جميعًا، وأقف في ظل عيونكم فخورًا بجيل جديد، لا يعرف النفاق، لا يسامح في الأخطاء، ويفتح كتب العلم بشغف وانطلاق.

أحبكم جميعًا وأنتم قادمون إلى مدارس الحب والحرية والجمال، تعبرون جسور المحال، وتهدمون صروح المستحيل، ومصر تسكن في قلوبكم نورًا يغشى الآفاق.

أحبكم جميعا، وأنتم في كمالٍ واكتمال.

أحبكم جميعًا، ونفوسكم النقية، تنبض بعشق الوطن ونهر النيل والضفاف، وترسمون فوق خارطة الدلتا قلبًا يحتوي مصر وتاريخ مصر ومواقف مصر ضد الإرهاب.

أحبكم جميعًا، ونتعاهد معًا أن نزرع كل يوم شجر المحبة والصدق والعمل الجاد، وافرشوا بأهداب العيون دربًا تخطو عليه الأمجاد.

أحبكم جميعًا، ولنبدأ معًا تاريخًا جديدًا، ونفتح كتاب العلم والمجد والأخلاق، ونخطو إلى الآفاق، ولا نجلس ونحلم، ولكن نحول أحلامنا إلى حياة وحقيقة وليست خيال في خيال.

أحبكم جميعًا.

(من كلمة مدير المدرسة إلى الطلاب مع بداية الفصل الدراسي الثاني)

(١٩٧)

السيد الفاضل مدير المدرسة،

تحية طيبة وبعد،

أتقدم بالشكر إلى سيادتكم على الاهتمام بالطلبة، بالتواجد معهم دائمًا بالفصول وفي فناء المدرسة.

أتقدم لسيادتكم بشكوى أنا ومعظم أولياء الأمور عن الضغوط المعنوية والمادية والجسدية التي نتعرض لها، منذ أن دخل علينا هذا الكابوس وهذه الآفة اللعينة وهي (الدروس الخصوصية).

فلم يعد هناك مقولة (ذاكر تنجح)، ولكن السائد الآن (عليك بحضور الدرس الخصوصي لتضمن النجاح والمجموع).

وللأسف الشديد يقوم المدرسون بتهديد الطلاب إذا لم يشتركوا في مجموعات مراكز التقوية المنتشرة في القاهرة، بطريقة قانونية وغير قانونية.

أرجو من سيادتكم النظر إلينا بعين الرحمة، وحمايتنا من هذا المرض اللعين وهو الدروس الخصوصية.

ولسيادتكم فائق الاحترام.

أولياء أمور طلاب المدرسة

(١٩٨)

قالت الأم في حزن:

– مجموعة الدرس في المدرسة ندفع لها خمسين جنيهًا، والوزارة قد حددت للطالب خمس وعشرين جنيهًا فقط كيف ذلك؟ من يسرق من؟!

(١٩٩)

صرخ الأب معترضًا وقال:

– منهج اللغة العربية موضوعاته سخيفة، والتدريبات يعجز عنها عالم اللغة! والشعر سخيف وركيك، أرجوكم ارحمونا من هذه المناهج الهزيلة!

(٢٠٠)

كشف اللثام عن وجهه وابتسم وقال:

– يمكنك أن تعبر، لا أريد منك مالك أو هاتفك؛ لأنك كنت معلمي، وكما ترى أصبحت أنا الآن مجرد بلطجي لا قيمة له، يا ليتني استجبت إلى نصائحك! ولكن فظاعة التدريس دمرتني، سامحني!

وامتطى الموتوسيكل خلف صديقه وغابا بعيدًا في الظلام.

(٢٠١)

استلمت بطاقة جميلة زخرفت بالورود وعليها هذه الكلمات:

أحببتك دائمًا أبًا روحيًا لي، فهل من الممكن أن تحضر عقد قراني وتكون أحد الشهود؟

(٢٠٢)

كلما بدأت فترة الراحة (**Break**)، اشتد خفقان قلبي خوفًا على الطلاب والمعارك التي تشتعل بينهم على أتفه الأسباب.

(٢٠٣)

سمعت أحد الطلاب يقول ساخرًا:

- المدرسة تحولت إلى سوق للدروس الخصوصية!

(٢٠٤)

قال أحد المعلمين يائسًا:

- ما حياتنا إلا رحلة يائسة بين فصول المدرسة وبيوت الطلاب!

(٢٠٥)

قررنا أن يقول الطلاب وداعًا لمأساة الدروس الخصوصية، أعددنا برنامج مراجعات قبل الامتحانات بفترة كافية، هاتفنا الطلاب، ونشرنا إعلانًا على صفحة المدرسة أن المراجعات مجانًا.

تحمسنا، فرحنا، رحب معنا المدرسون بالفكرة وأعدوا أوراق المراجعة وانتظرنا الطلاب.

وجاء المدرسون في حزن ويأس وقالوا:

- لم يحضر أحد.

(٢٠٦)

خرجت من المدرسة فوجدت الطلاب ما زالوا يثرثرون عن الامتحانات، تبادلت معهم التحية ودخلت سيارتي وظللت منتظرًا أن تعبر العربات ويخلو الطريق. إذ بالطلاب يشكلون درعًا أمام العربات لتقف حتى أمضي بسيارتي وسمعتهم يهتفون:

- قفوا جميعًا، هذا مدير مدرستنا.

وسمعت أحد السائقين يصرخ منفعلًا:

- هو مدير المدرسة خارج ومعاه بلطجية يسدون الطريق عشان حضرته يعدي، يا سلام على التعليم!

وشعرت كأني قائد أو زعيم أو رئيس الجمهورية، يعبر وسط هتافات الطلاب وأنا ألوح لهم بيدي.

(٢٠٧)

قال أحد المعلمين في غضب:

- حادث مثل هذا في دولة أخرى تُقال فيه الوزارة والوزير.

وقرأت عن باص المدرسة الذي صدمه القطار، وكان عشرون تلميذًا ضحية الحادث.

(٢٠٨)

اقترح المختص الاجتماعي أن نتجاهل المشكلة لأنها حدثت خارج المدرسة.

والمشكلة هي تبادل عبارات مسيئة للأخلاق عبر برنامج المحادثات **Whatsaap**، ولكني ظللت أفكر هل تمتد سلطة المدرسة داخل البيت؟

(٢٠٩)

سألني أحد الطلاب ساخرًا: هل نتعلم من أجل الامتحان أم الحياة؟!

(٢١٠)

اكتشف الأب أن ولده يدخن السجائر، فماذا يفعل؟ اقترح البعض عليه مراقبته ومتابعته يوميًا، فقال الأب ساخرًا:

– كيف ذلك؟ وأنا أشقى في العمل طول اليوم وأمه كذلك، فهل لديكم من يتابع ابني بعد المدرسة؟

(٢١١)

صرخ الطالب غاضبًا: سيأتي أبي المدرسة ويحاسبكم جميعًا، ألا تعلمون من هو أبي؟

وفي اليوم ذاته تم استدعاء ولي الأمر واصطحب ابنه خارج المدرسة؛ عقابا له لتجاوزه أخلاقيًا ولم أسأل من هو أباه.

(٢١٢)

تمزق قلبي والأم تبكي:

– المدرس يضرب ابني بالحزام! ما الذي يحدث في مدرستكم المحترمة؟ هل تلك مدرسة أم معتقل؟!

(٢١٣)

قالت الطالبة في شجاعة:

- كلنا سعداء يوم الإجازة الأسبوعية، فياريت تكون الأيام كلها الجمعة والسبت، وليس هناك مدرسة!

(٢١٤)

ضحك معلم اللغة العربية حين سأل طلاب المرحلة الإعدادية:

- ماذا تعرفون عن الخلفاء الراشدين والصحابة وقادة الفتح الإسلامي؟

وساد الصمت دون إجابة، مما جعل المعلم يغرق في الضحك ويسخر من الطلاب قائلًا:

- جيل تافه ضحل المعرفة، جيل الفيسبوك!

وشعرت بسكين حاد يمزقني وقلت للمعلم ساخرًا منه:

- ليس ذنب الجيل، وإنما نحن المذنبون في حقهم.

(٢١٥)

النخلة الخضراء في فناء المدرسة زاهية بأوراقها وثمارها، وعلم مصر يخفق في الفضاء ويتحدى الريح ويختال بألوانه، وطلابنا يواجهون محنة العصر في انتظار أن يقولوا: تحيا مصر!

(٢١٦)

في محاضرة حول شخصيات من تاريخ مصر، سألني الطلاب عن جمال عبد الناصر، خفق قلبي بالذكريات وقلت بحماس:

- تعلمنا منه ألا يحني المصري رأسة أمام قوى الطغاة والاستعمار.

وضحك أحدهم قائلًا: وأين هم الطغاة والاستعمار؟

(٢١٧)

صرخ الأب في السكرتيرة لمقابلتي والغضب يكسو ملامحه، وبدا ثائرًا يريد الانتقام من شيء ما. طرح مشكلته وهي أن أحد المعلمين استعمل العنف والقسوة مع ابنه مما سبب له جرحًا في جبينه.

قلت للسكرتيرة أن تأتي بالطالب، ولكنها عادت تؤكد أنه ليس لدينا اسم هذا الطالب بالمدرسة. وانتفض الأب صائحًا:

- أين ابني؟ ماذا فعلتم به؟ إنه بالمدرسة!

وشعرت برعب يتسلل إلى قلبي وخوف أن يكون الطالب هاربًا أو تم اختطافه. وبعد أن قام الأب بالاتصال هاتفيًا بزوجته ابتسم ووقف خجلًا وقال:

- أقدم لكم اعتذاري وأسفي الشديد، ابني ليس في هذه المدرسة، وإنما المدرسة المجاورة لكم.

وغمرني إحساس بالسعادة وقلت له:

- العنف والضرب والقسوة ليسوا من سمات مدرستنا.

(٢١٨)

همست الأم وهي قلقة وحائرة:

- لقد جئت من قبل والتقيت بالمختص النفسي ليعرف مشاكل ابنتي؛ لأنها ترفض الذهاب للمدرسة ولا تريد أن تتعلم.

واستطردت الأم:

- ما حدث بعد جلسات مع المختص النفسي أن ابنتى تكرهني ولا تريد الحياة معي، وتتهمني أني أنا السبب في طلاقي من أبيها. أرجوكم ساعدوني ماذا قال هذا المختص النفسي لابنتي؟

(٢١٩)

أولياء أمور الطلاب ليس لديهم الوعي والدراية بنظم الامتحانات وما يفيد الطالب حقًا. أكدنا لهم أن أسئلة الكتاب المدرسي هي التي يتم مراجعتها ويأتي منها الاختبارات.

كلهم اعترضوا ويريدون (أوراق مراجعة) مثل تلك التي يوزعها المدرسون في الدروس الخصوصية ومراكز التقوية.

قمنا بنسخ وطباعة نفس أسئلة الكتاب المدرسي في أوراق منفصلة ووزعناها على الطلبة، وتلقينا رسائل شكر وكلمات تقدير من أولياء الأمور!

(٢٢٠)

ظللت حزينًا ومتوقعا معركة كبيرة بعد أن قام أحد المعلمين بتوجيه لكمة لطالب تركت جرحًا على جبينه، قمت بإيقاف المعلم عن التدريس وتحويله للشئون القانونية ومنحته إجازة مرضية حتى نرى موقف الأب.

في اليوم التالي جاءني الطالب المصاب ولمحت الجرح في جبهته، وقال لي مبتسمًا:

- لقد كذبت على أبي وأمي وقلت لهما أني اصطدمت بالنخلة في فناء المدرسة؛ لأني أحب معلمي وأخاف عليه.

وابتسمت واحتويت الطالب بين ذراعي.

(٢٢١)

اتصل بي رجال الأمن بالمدرسة وقال أحدهم:

– نحمد الله لقد تم ضبط شحنة من (الدليفري) قادمة عبر الشارع من محلات (كنتاكي) و(ماكدونالد)، وقدرت الشحنة بمبلغ خمسمائة جنيه مصري، وتحفظنا على الطلاب أصحاب الشحنة.

وكنت قد أصدرت قرارًا يمنع الطلاب من الاتصال هاتفيًا بالمطاعم لطلب وجبات غذائية حرصًا على سلامتهم.

(٢٢٢)

اقتربت مني الطالبة الصغيرة باكية وهي تنتظر أمها التي لم تحضر حتى الآن، أجلستها في مقعد بفناء المدرسة، واشتريت لها بعض الحلوى وقلت لها أن تلهو قليلًا حتى تقوم الإدارة بالاتصال بالأم، لم أغادر مدرستي حتى حضرت الأم تشكو الزحام الشديد، والطالبة الصغيرة تبتسم لي.

(٢٢٣)

قال المعلم في حزن:

– لماذا يظل الطلاب يدرسون الأدب الإنجليزي الكلاسيكي لشارلز ديكنز وشكسبير وسويفت، وليس هناك فرصة لدراسة الأدب العربي مترجمًا للغة الإنجليزية في طبعات مبسطة؟

(٢٢٤)

غمرني الفرح حين أعلن مدرس اللغة العربية نتيجة الأبحاث حول الأديب نجيب محفوظ، وحين سألت عن عدد الطلاب المشاركين قال المعلم في يأس:

- هو الطالب نفسه ولا أحد شارك.

(٢٢٥)

جاء أحد الطلاب وقال في ذعر:

- سقطت الطالبة على الأرض في حالة إغماء شديد، وعندما أسرعنا لإنقاذها نهرنا المعلم وقال دون اهتمام:

- حيلة صبيانية وأكاذيب وتمثيل لا تهتموا بها.

وظلت على الأرض حتى فارقت الحياة!

(٢٢٦)

كانت تبكي في صمت أمام باب الفصل ولا تريد الدخول، وحين دنوت منها وجففت لها دموعها قالت في شجن:

- مات أبي أمس.

(٢٢٧)

اهتزت جدران الفصل طربًا ورقص الطلاب فرحًا، وسألتهم عن سر هذا الهرج قالوا:

– مدرس الدراسات الاجتماعية غائب.

(٢٢٨)

صرخ الطالب في جرأة في وجه مدرس اللغة العربية:

– لن أحضر حصة النحو؛ فهي سخيفة وثقيلة ولا أفهم منها شيئًا.

(٢٢٩)

اعترض الأب وقال:

– هل يتم استدعائي لمجرد أن ابني سيء السلوك؟

(٢٣٠)

جاءت شاحبة الوجه ذابلة العينين وانفجرت باكية:

– تدهور مستوى ابنتي في الدراسة بسبب سوء تصرفات زوجي، أرجوكم تحدثوا معه! افعلوا شيئًا ما!

(٢٣١)

ذُهلت حين أخبرني المختص الاجتماعي وقال:

– لائحة الانضباط المدرسي تم التراجع عنها وإلغاؤها بأمر من الوزير الجديد!

(٢٣٢)

جاءوا جميعًا يصافحونني وابتسامة مشرقة تضيىء الوجوه، وحين سألتهم عن سر هذا الفرح الذي يحتويهم قال أحدهم:

– لدينا يومان إجازة عيد تحرير سيناء وشم النسيم.

(٢٣٣)

جاءت عاملات النظافة يعبرن عن سخطهن واحتجاجهن لما يحدث كل يوم بعد انتهاء الامتحانات، وقالت إحداهن:

– الطلاب يمزقوا الكتب ويبعثروا الصفحات في فناء المدرسة وأروقتها، ونحن كل يوم نقوم بجمع الكتب الممزقة. ألا توجد طريقة توقف ذلك؟ أليس هذا حرام؟

(٢٣٤)

جلس أمامي مدير المنطقة التعليمية وقال:

– كل التقارير لديكم تشير إلى كفاءة عالية يتمتع بها المدرسون، ولكن أرى أن نتائج الامتحانات لا تبشر بالخير.

(٢٣٥)

قال رئيس قسم اللغة العربية بغضب:

– هل تصدق أن في امتحانات الصف الثاني الثانوي هناك أربعة أسئلة من خارج المنهج؟

وأدركت أن المشكلة تكمن فى واضع الامتحان إذ لابد أن يكون خبيرًا بالمنهج، وليس لمجرد أنه مفتش أو موجه فني بالوزارة يحق له أن يضع الامتحان!

(٢٣٦)

جاءتني نشرة إدارية من الوزارة تقول:

"وعلى ذلك لابد من قيام المدارس بأنشطة تعليمية وترفيهية للطلاب خلال العطلة الصيفية، وأن يكون هناك ملصقات توضح هذه الأنشطة ومواعيدها والقائمين على تفعيلها"

واستدعيت السكرتيرة وسألتها:

- هل وضعتم الملصقات عن الأنشطة؟
- قمنا بعمل كل شيء على أكمل وجه.
- وهل حصرتم أسماء الطلاب المشاركين؟

ابتسمت السكرتيرة وقالت بصدق:

- مثل كل مرة لا يوجد طلاب ولكن توجد أوراق فقط وهذا ما يهم الوزارة!

(٢٣٧)

أثناء مروري لمتابعة الطلاب خلال امتحانات آخر العام، شاهدت طالبة تسبح في بحار التأمل ولا تكتب، ودنوت منها فإذا بها تسألني:

- ألن يأتي يوم وتتخلص الدولة من أنظمة الامتحانات الفاشلة التي تعتمد على الحفظ والدروس الخصوصية؟

(٢٣٨)

قدم لي مراقب الدور ورقة تسمى (محضر غش)، دون فيها اسم الطالب الذي اقترف الجريمة. وكأنني في قسم الشرطة أحقق مع أحد اللصوص، وليس طالبًا مسكينًا ضحية مناهج عقيمة وأنظمة تعليمية فاشلة!

(٢٣٩)

قدم لي رئيس الكنترول ورقة امتحان طالبة في الصف الخامس الإبتدائي كتبت فيها:

- أنا أعيش في عالم كله كذب، مدير المدرسة يؤكد أن الامتحانات ستكون سهلة، ومعلمتي تقول احفظوا هذا سيأتي في الامتحان، وأبي يقول ليس أجمل من المدرسة، وأمي تؤكد أني سوف أنجح بسبب الدرس الخصوصي. سامحوني أنا في عالم كله كذب في كذب، كيف أنجح؟!

(٢٤٠)

مفاجأة كنت أخشى أن تقع!

صرخ المعلمون: امتحان الثانوية العامة للعربي والدين واللغة الإنجليزية مع الطلاب.

وصحت في فزع: كيف تسرب الامتحان؟ من المسئول؟

ورفعنا رءوسنا إلى السماء وصحنا: يا رب.. يا رب..

(٢٤١)

أمشي بين فصول وردهات المدرسة كأني أقف على جمرات من نار متوقعًا كارثة.

(٢٤٢)

أثناء مروري اليومي على فصول المدرسة، فوجئت بأحد الفصول يسوده الصمت التام، وقد وقف المدرس أمامهم في لحظات تأمل وعندما شاهدني قال:

– الطلاب في لحظات قراءة وبحث وأنا في انتظار أن ينتهوا.

اشتد إعجابي بالموقف وقلت له مبتسمًا:

– دعهم مع كتبهم، وفقهم الله.

وعند عودتي لمكتبي قالت الوكيلة:

– لابد أن أكشف الحقيقة؛ فهذا المدرس ملزم بحصة احتياط، وترك الطلاب يفعلون ما يريدون.

قلت لها:

– لقد أحسن استغلال حصته في القراءة والبحث للطلاب.

ابتسمت الوكيلة في مكر وقالت:

– لو قلبت صفحات الكتب لوجدت أجهزة الهاتف المحمول بين الصفحات.

وشعرت بخيبة أمل وضيق وقلت لها:

- دائما تفسدين فرحتي في هذه المدرسة!

(٢٤٣)

جلس موجه وخبير اللغة العربية أمامي غاضبًا يشكو ضحالة فكر المعلم، وقال: هل تصدق أن معلم اللغة العربية لا يعرف من قائل:

وطني لو شُغِلتُ بالخلدِ عنه.. نازعتني إليهِ في الخلدِ نَفْسي

وسألته بمكر: ومن قائل هذا النص؟

- إنه الشاعر مصطفى كامل زعيم الأمة.

واهتزت الجدران حولي من مرارة السخرية ومأساة الموقف.

(٢٤٤)

ضحكات تعالت، صيحات من الفرح والبهجة أسمعها تتسرب لي من كل الفصول، وجاء من يخبرني عن السبب:

- الطلاب مبتهجون ويغنون لأن غدًا إجازة بسبب الانتخابات.

وظللت أفكر لماذا يكرهون المدرسة؟

(٢٤٥)

جاءت شكوى من رئيس قسم التربية البدنية بتواجد طلاب في فناء المدرسة، وأقبل الطلاب وعلمت أنهم هاربون من حضور إحدى الحصص، وقال لي أحدهم:

- إنها حصة فراغ لا قيمة لها، إنها المكتبة فماذا نفعل؟

واشتد غضبي، وقلت:

- وهل وقت المكتبة فراغ؟

وقال لي الطالب:

- المدرس يتركنا نعبث في هواتفنا، وهو يجلس في حوار مع طلابه للاتفاق على مواعيد الدروس الخصوصية.

وأدركت أن الطلاب حقًا ضحايا فكر فاسد ومعلم خائن لمهنته.

(٢٤٦)

في احتفالية مرور خمس سنوات على طلاب الثانوية العامة الذين كانوا من أوائل الجمهورية في مدرستنا، أقمنا الحفل ووزعنا عليهم الجوائز، وحين سألت أحدهم عن وظيفته الحالية، قال في حزن:

- ياليتني ما تخرجت من الجامعة، فما زلت أبحث عن عمل من مندوب مبيعات، إلى موظف اتصالات، إلى بائع في سوق مركزي.

(٢٤٧)

خارج مكتبي سمعت السكرتيرة تتحدث مع بعض المدرسين، وهم يشكون من غلاء المعيشة وجنون الأسعار ومصاريف المدارس والدروس الخصوصية والضرائب وأسعار البنزين، وسمعت إحداهن تبكي وتقول:

– طيب وأسعار الدواء وزوجي المريض!

(٢٤٨)

ضحك المعلم ساخرًا وقال:

– ما قيمة العلم إذا كان المجد والثروة للفنانين والراقصات وتجار المخدرات ومنافقي الإعلام، ورجال الأعمال الذين يجيدون فن اختراق القانون؟!

(٢٤٩)

تمرد الطلاب ورفضوا شراء ما يريدون من مقصف المدرسة لارتفاع الأسعار، مما أرغم مسئول المقصف على تغيير السعر إلى نصف القيمة. وتقدم أحد المعلمين وقال:

– لماذا لا يتعلم الشعب من طلابنا قيمة التمرد الإيجابي؟

(٢٥٠)

يتساءل أولياء الأمور:

– لماذا يسود حياتنا هلع وفزع وخوف بسبب امتحانات الثانوية العامة؟

(٢٥١)

أحد المدرسين سلمني دفتر صغير عنوانه (من يوميات مدرس مقهور)، وقرأت التالي:

– في مدارسنا نتعلم الدروس ثم نواجه الامتحانات، لكن في الحياة نواجه الامتحانات ثم نتعلم الدروس.

– ليس في مدارسنا من يعرف معنى الابتكار أو الإبداع، ولكننا غارقون في الحفظ والتلقين من أجل الامتحان.

– سأموت جوعًا إذا توقفت عن الدرس الخصوصي.

– ذات مرة سألتني طالبة: ما معنى النجاح وفي نهاية المطاف تتحطم الأماني والأحلام، ونمتهن أعمالًا لا تخصنا؟!

– صمتوا جميعًا حين سألتهم: من يحلم أن يكون معلمًا؟

– اكتشفت أخيرًا أن قضية التعليم ليست في العلم وإنما جمع المال.

– يتحدثون في وسائل الإعلام عن إنشاء مبانٍ جديدة وتكنولوجيا عجيبة وتوظيف أدوات على اتصال بالعالم، وقد تناسوا أن المعلم مازال يعيش في آخر العالم.

– التعليم أيها السادة قضية إصلاح حياة معلم، وليس تغيير سبورة.

– أضحكني مدير المدرسة حين قرر توظيف السبورة الذكية، ولم يجد المعلم الذكي الذي يتفاعل معها.

– سألتهم: كيف أتفاعل مع تكنولوجيا الأدوات العلمية، ولا أملك القدرة على شراء جهاز حاسوب أو تابلت في بيتي؟!

– كل عام يصدرون قرارات جديدة ويباركها أعضاء الوزارة، وتتوقف عند أبواب المدارس!

– إنه دائما في نهاية القافلة: المعلم.

– حياتي ضاعت شاردًا في الشوارع من بيت طالب إلى آخر.

– هجر صديقي التدريس وعمل مندوبًا لتسويق العقارات، وضحك قائلًا: راتبي الشهري أكثر من مرتب وزير التربية.

– يطاردون المدرس ليكف عن الدرس الخصوصي، ولماذا لا يطاردون الطبيب الذي لا يكف عن الزيارات الخصوصية؟ فالمعلم لديه طالب مريض ذهنيًا والطبيب أيضًا.

– سألني أحد طلابي القدامى: أنهيت مرحلة التعليم الجامعي منذ سبع سنوات ومازلت دون عمل! فما جدوى التعليم في بلادنا؟

– تقدمت لخطبة زميلتي المعلمة، وسألني والدها: هل لك مصدر دخل آخر غير الدروس الخصوصية؟

– ظاهرة غريبة في مدارسنا، صيدلي يدرس العلوم، ومهندس يدرس الرياضيات، ودارس سياحة وفنادق يدرس اللغة الإنجليزية، ودارس آثار يدرس الدراسات الاجتماعية، وحامل شهادة التجارة يدرس الحاسوب. فهل مهنة التدريس مربحة إلى هذا الحد؟

– يا رب صبرني على هذا القهر وكن معي!

– كنت أدخن سيجارة في الحمام وحاسبني المدير بخصم من راتبي، فأين أدخن إذا كان ممنوع الخروج وممنوع التدخين في داخل المدرسة، ممنوع ممنوع في كل مكان، ولكن أعتقد ليس ممنوعًا في الحمام، إنه مكاني الخاص!

– التدريس يعلمك سرعة النفاق ومهارة الكذب، وفن تخويف الطلاب من الامتحانات إذا لم ينالوا الدرس الخصوصي.

– أنا معلم مبدع، عفوًا أقصد مقهور بطريقة مبدعة!

– أنا معلم فاشل، كل طلابي تخرجوا من الجامعة ومازالوا دون علم أو ثقافة.

– أسوأ لحظات حياتي: تصحيح الامتحانات.

- كل ما نحن نُعلمه للطلاب من قيم ومبادئ وأخلاقيات طوال سنوات، تقوم وسائل الإعلام بهدمه في دقائق.

- ظاهرة غريبة، الطلاب الصغار وحدهم هم الذين يرددون النشيد الوطني في طابور الصباح!

- يساومني ولي الأمر على ثمن الحصة الخصوصية، وحين يأتيه عامل الصرف الصحي لتركيب أو إصلاح شيء يدفع دون جدال، فالصرف الصحى أغلى من العلم.

- سألني: ألا تجد شيئًا من الهوان حين تطرق أبواب الطلاب؟

- المدير أضحكني كثيرا حين قال: أنتم أيها المعلمون تكنزون المال من الطلاب ولا أحد يحاكمكم!

- القهر في مدارسنا يأتي من أعلى إلى أسفل، وفي الأسفل يكون المعلم.

- مأساة المعلم: يحمل شهادة ولكنه بلا علم وبلا ثقافة تتيح له المعرفة، ولا تفكر الوزارة في تطويره مهنيًا، بل في تدميره إنسانيًا.

- لم أستمع أبدًا إلى تعليمات مدير المدرسة أو موجه المادة أو رئيس القسم، كنت أهز رأسي ولا أعرف ماذا يقولون!

- المدارس في بلادنا غربة، وحياة بلا انتماء، وضجر من كل شيء.

– ذات مرة صرخت بالحقيقة، وعشت نادمًا لجرأتي.

– هذا المدير علمني فن الكذب؛ فقد سألني عن بعض أخطائه في الإدارة فاعترفت له بالحقيقة وكنت صادقًا، ولكن في اليوم التالي وجدتني منقولًا لمدرسة خارج العاصمة.

(٢٥٢)

في محاضرة مع طالبات المرحلة الثانوية تحدثت إليهم عن سميرة موسى ومجدي يعقوب، ونجيب محفوظ، ورانيا علوان، وشارلز ديكنز وتولستوي وهمنجواي. وبعد المحاضرة سألتني طالبة:

– وأين البحوث والاكتشافات العلمية التي توصلت إليها سميرة موسى؟

(٢٥٣)

حفيدتي في المرحلة الابتدائية تغني وترقص وتتألق يوم الخميس بعد المدرسة، وفي مساء السبت تجلس في حزن لأن المدرسة غدًا، فلماذا؟!

(٢٥٤)

تجمع الطلاب حول غرفتي وقال احدهم:

– نريد يومًا للقيادة الذاتية، أن ندير المدرسة بأفكارنا وخططنا لنحقق أحلامنا ولو ليوم واحد.

(٢٥٥)

التقيت بقسم اللغة الإنجليزية وقالت إحداهن:

- موجهي اللغة يدخلون الفصول للبحث عن أخطائنا وكأننا في إمتحان.

قال أحدهم: سياسة التوجيه أن تضع المدرس في موقف يندم عليه ويكره ذاته وحياته. نحن ضد التقليدية وتهميش دور المعلم وتدمير معنوياته، وإلا سنتحول جميعًا إلى متملقون للتوجيه.

وعندما حضرت موجهة اللغة قررت أن أقف متحديًا تلك السياسات العقيمة في التوجيه، فإذا بها تبتسم في تألق وتقول للمدرسين:

- علينا مواجهة التحديات بالأمل والعزيمة والإصرار على تحقيق الذات؛ فالمعلم أساس العملية التعليمية، وله الحرية في تطبيق طرق علمية جديدة، وتكنولوجيا تساهم في تحويل التعليم من حفظ وتلقين إلى ابتكار وابداع، وأنا جئت أتعلم منكم الكثير.

ولذت بالصمت أمام الموجهة المثقفة، ونظرت لي مبتسمة وقالت:

- علينا أن نساهم في تمهيد الدرب للمعلم، ونسانده ليسمو بأفكار الطلاب.

قلت لها في إعجاب:

- ما دمنا جميعا في رباط وثيق بالطموحات والأمل، سنهزم اليأس ونتحدى العقبات.

(٢٥٦)

قال لي حزينًا: لماذا كتاب الوزارة المدرسي مهمل ولا قيمة له، والمجد للكتاب الخارجي؟

(٢٥٧)

ضحكنا جميعًا عندما أكد وزير التربية في المؤتمر أن منظومة التعليم الجديدة ستجعلنا في قمة دول العالم.

(٢٥٨)

سألني الطالب الصغير: لماذا ينظرون للمعلم في رثاء؟

(٢٥٩)

لماذا أشعر عندما أمر أمام فصول المدرسة أننى في معتقل أو سجن كبير؟

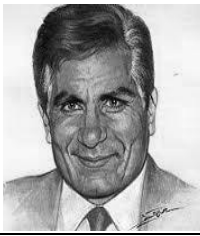
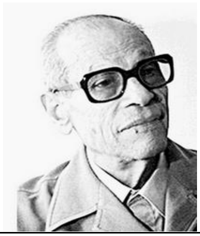
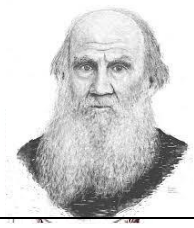
(٢٦٠)

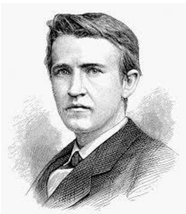
ذات مرة وجدته في الغرفة نائمًا، وقال صادقًا:

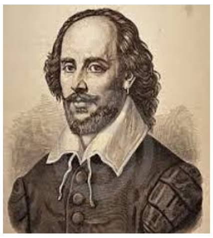
- سامحني فالدرس الخصوصي إثم كبير لا يرحم.

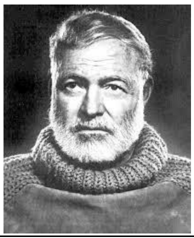
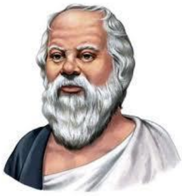
(انتهت يومياتي)

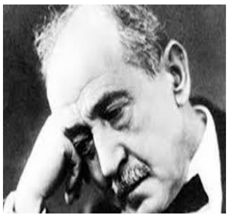
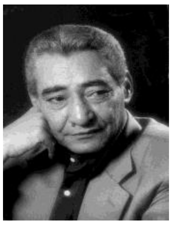
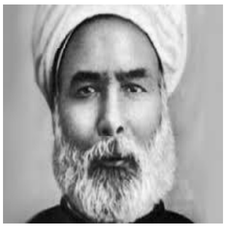
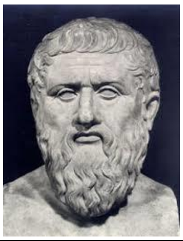
صور بعض الأعلام الذين ذُكروا في اليوميات

		
يوسف السباعي	**يوسف إدريس**	**نجيب محفوظ**
		
نابليون بونابرت	**المتنبي**	**ألبير كامي**
		
فاروق جويدة	**تولستوي**	**محمود مختار**

		
علي مبارك	أحمد زويل	أحمس
		
فاروق حسني	الحاكم قراقوش	توماس إديسون
		
حسين بيكار	أحمد نوار	شوقي وحافظ

		
علماء مصر	خورشيد باشا	شكسبير
		
طه حسين	مصطفى محمود	نزار قباني
		
يحي المشد	سميرة موسى	علماء مغتالون

		
محمود درويش	كامل الشناوي	فؤاد حداد
		
ابن بطوطة	ابن خلدون	ابن سينا
		
إرنست همنجواي	سارتر	سقراط

		
أحمد شوقي	عبد الرحمن الأبنودي	عبد الرحمن الشرقاوي
		
محمد عبده	أنيس منصور	أفلاطون
		
الرئيس جمال عبد الناصر	الرئيس محمد أنور السادات	الرئيس محمد حسني مبارك

		
عبد الحليم حافظ	**فريد الأطرش**	**محمد عبد الوهاب**
		
المقريزي	**إبراهيم عبد القادر المازني**	**توفيق الحكيم**
		
عباس محمود العقاد	**أم كلثوم**	**زكي نجيب محمود**

صدر للمؤلف

- الصعاليك ينفجرون بالغناء.
- (مقالات تحليلية لإبداع مجموعة من الشعراء العرب)
- الغربة والإبداع. (شهادات المبدعين في الغربة)
- العصفور والسنبلة.
- (تحليل لقصائد الشاعر محمد يوسف وسيرة لحياته).
- عشاق الحزن الجميل. (تحليل لسمة الحزن في تحفيز الإبداع).
- للحب والجمال والحرية مواقف أدبية. (مقالات نقدية).
- العدواني في عيون معاصريه. (مقالات عن الشاعر الكويتي أحمد مشارى العدواني).
- العدواني وثائق وصور. (تسجيل لرحلة الشاعر أحمد العدواني بالصور).
- حمامة بيضاء. (قصص علمية للأطفال).
- الصوت الهامس. (كتابات نثرية).
- حبيبتي أنتِ. (كتابات نثرية).
- تأملات في قصائد الغزل. (أشعار نزار قباني وفاروق جويدة وغيرهم).
- الفراشة عاشقة الضوء. (دراسة نقدية في قصص الأديبة الكويتية ليلى محمد صالح).
- المبحرون في التراث. (دراسة في أدب د.عادل عبد المغني).
- تأملات في أدب يحيى الربيعان. (دراسة في أدب يحيى الربيعان).

- أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين.
- (تراجم لأكثر من ٥٠٠ شخصية مبدعة في مجالات المعرفة).
- مشاهير الصحابة. (تراجم لحوالي ١٠٠ شخصية من الصحابة).
- نساء في حياة الرسول. (تراجم لحوالي ١٠٠ شخصية نسائية).
- شخصيات أدبية. (تراجم لأكثر من ٣٠٠ شخصية أدبية).
- أعلام في الأدب العالمي. (تراجم لاكثر من ١٢٠ شخصية أجنبية).
- الغاضبون في الأدب. (دراسات أدبية لسمة الغضب وعلاقتها بالإبداع).
- عالم البراءة. (قصص قصيرة).
- يوميات مدير مدرسة. (قصص قصيرة عن عالم المدرسة وقضايا التعليم).
- التحدي. (نص مسرحي مستوحى من حياة عباس محمود العقاد).

تحت الطبع:

- القيم الاخلاقية والتربوية في حياة الرسول.
- شعراء من إسرائيل. (تصوير الوجه البشع في الشعر الإسرائيلي)
- محاكمة محمد علي باشا. (نص مسرحي).
- هؤلاء عاشوا في وجداني.
- (تجربة الكاتب مع شخصيات أدبية وعلمية تأثر بها وتعلم منهم فن الحياة).
- من اغتال هؤلاء؟
- (كتاب يستعرض شخصيات علمية وأدبية تم اغتيالها لأسباب كثيرة ومازال القاتل هاربًا).

إلى الأديب علي عبد الفتاح

شعر: إبراهيم محمود مصيلحي

عَلَمٌ من أعلامِ الشِعَر

ونقد الأدباءْ

يحيا عَصرَ الحبِ

زمنَ الطهرِ

وأخلاقَ النبلاءْ

مثلَ الغواص

يفتشُ عن لؤلؤة البحرِ

فيكتبُ تاريخ العظماءْ

و"الصوتُ الهامسُ"

رغمَ دويّ الأصداءْ

***

يرنو للعالمِ عشقًا

يتمنى الواقعَ صدقًا

في عالم طفلٍ وبراءةٍ

وحمامة سلم بيضاء

***

تبدو الذاتُ المغتربة

لذاتٍ ملتهبة محتجبة

قد أجّجَتْ العشقَ

بآفاقٍ محتجبة

وصراعُ الغربةِ

هل أغتربُ بذاتي أم عن ذاتي؟

***

ويداويني من شدته الداءْ

ويخامر عقلي أفكارٌ

أو أحلامٌ وردية

أوهامُ العودةِ

أو عودة أوهامٍ

تجتاح قوية

***

مازلتُ ألململمُ نفسي

أستجمع كل الأشياءْ

ويمضّي العمر غريبًا

أو مغتربًا

ليحيل الغربة حُبًا

يرسم قلبًا

رئة للحب وأخرى للحريةِ

فيحيلُ الغربة إبداعًا

والحب جمالًا

ويعانق أفقًا وسماء

ويعودُ ليسألَ: هل عشت غريبًا؟

هل مازلتُ غريبًا؟

أم مغتربًا؟

***

حولي كتبي ونزارٌ وحليمٌ وجميع الشعراء

قل لي يا فارسَ هذا العصرِ

هل تحيا الحبَ بلا سيفِ

في زمن الزيفِ

وتبدو مبتسمًا

في عصرِ كآبة

ولماذا يصفو القلب

وحولك ألف سحابة؟

قلمٌ للإبداعِ وقلبٌ للحبِ مثابه

والشعرُ الأبيض يعلن عبر النور شبابه

في عزمٍ ومضاءْ

والإمضاء

حبيبٌ سيظل العمرً بإخلاصٍ ووفاءْ

***

وتذكر أني لست صديقًا

بل قلبًا يحيا فيك وتحيا فيه

وإحساسًا نتنفس منه الصعداء

وتقبل مني خالص حبي وتحياتي

عِقدٌ، كالعقدِ نضارٌ فأضاء حياتي

بمعانٍ عظمى وهي النور لذاتي

من أحداثٍ عشناها جَهدًا وبلاءْ

مرحًا وهناءْ

***

إن الفارسَ منْ يرسمُ في هذا العصرِ
عبر الأنواءْ
ضحكاتٍ أو سخرية
من يرفع صرحَ الحرية
والأرض خواء؟

الشاعر إبراهيم محمود مصيلحي

الفهرس